يوميات مچاري

أسرار مدينة

رواية

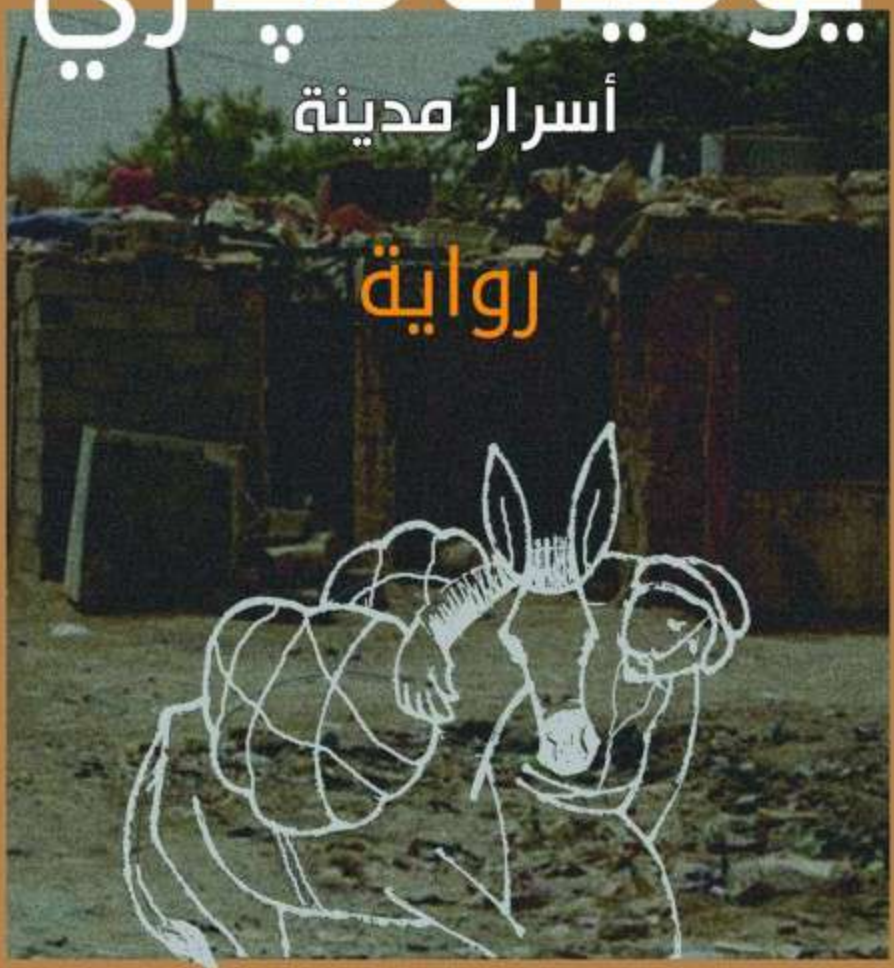

طارق الكناني

أمل الجديدة
طباعة - نشر - توزيع

(يوميات مچاري)

أسرار مدينة

وميات مچاري (رواية)
طارق الكناني
الطبعة الأولى: ٢٠٢٣ ميلادية
لوحة الغلاف : أ. د مصدق الحبيب
جميع حقوق الطبع محفوظة للمؤلف
إصدار مؤسسة المثقف العربي، سيدني – استراليا
نشر وتوزيع دار أمل الجديدة ، دمشق – سوريا
ISBN: 978-9933-681-49-4
رقم الايداع في دار الكتب العراقية:

سورية - دمشق
جوال 00963932472096- 00963932002126-
هاتف: 00963112724292

طارق الكناني

(يوميات مچاري)

أسرار مدينة

وقفة لابد منها:

نيفت على الستين ومازلت اسأل عن جارتنا تلك التي ذهبت الى غير عودة كنت اتذكر ابن اخيها الصغير الذي كان يركض خلفها ويبكي بحرقة، بينما هي حملت صرة ثيابها فوق رأسها واخرى بيدها ومضت تسير خلف اخيها لا تلوي عن شيء، لقد كبرنا وظل السؤال ماثلا في ذهني حتى رأيت احدى عجائز الطرف التي اعتادت ان تجلس على عتبة دارها تترصد المارة فقررت سؤالها عن مصير تلك الفتاة الريفية الجميلة التي سكنت محلتنا ذات يوم، تفاجأت من سؤالي واشاحت بوجهها عني وبعد برهة اشعلت سيجارتها ونفثت الدخان على الجهة اليمنى وقالت لي بصوت متهدج ويكاد الدمع يفيض من عينيها انها قتلت غسلا للعار.

ذكرت تلك الحادثة حين رأيت اليوم ذلك الطفل الباكي وقد تجاوز الاربعين من عمره وقد ارتدى العقال وملحقاته وجلس في دعوى عشائرية بخصوص فتاة قتلت غسلا للعار.

الإهداء

إلى الشمس حبيبتي حين تقرأني وحين تحضنني،

عندما تقبّلني تنهال عليَّ الحروف.....

آخر العنقود..

لا استطيع أن أقول عن إنسان إنه طيب إلا إذا كان لديه القدرة على فعل الشر ولم يفعل.

يجب أن يكون لديك الخيارات لنعرف حقا من أنت.

أفونسو كروش

يا لهذه المدينة التي تضج بالغرباء على مدار العام، كيف لم انتبه لذلك طوال حياتي، وأنا أعيش وسط هذا الزحام، لم تبهرني رؤية كافة الجنسيات الشرقية وغيرها، بكل ازيائهم، وألوانهم، ولغاتهم، ولم يثر فضولي يوما أي من تصرفاتهم، فقد بدا لي أن هذا الشيء طبيعي، اعتقدت انه موجود في كل البلاد، فأنا لم أكن يومها أتنقل في بقية المحافظات، سوى بغداد للدراسة، والنجف لزيارة بعض الأقارب، لأكن صريحا أكثر، لم تكن لي سوى عمّة واحدة تسكن هناك.

بعد هذه الرحلة الطويلة من العمل والتنقل بين محافظات البلاد، اكتشفت بأن لديَّ موهبة لم اكن منتبها لها، بالرغم من عدم زيارتي لهذه المحافظات إلا اني وجدت نفسي قادرا على التفاهم مع الأهالي وبلهجتهم، ففي كل محافظة زرتها لاحقا وجدتها تتمتع بخصوصية وثقافة معينة، ووجدتني قادراً على التكيّف مع تلك العادات والتقاليد بسلاسة إلا في بعض الأمور البسيطة، لم أكن اتوقع أننا في هذه المدينة نمثل ملتقى لكل هذه الأعراف والتقاليد، فهي تمارس أمام أعيننا ونحن نعرف اصحابها من خلال ممارستهم لهذه العادات.

ها أنا اليوم اكتشف كم كان هذا الزحام يخنقني؟ اخترت الهروب بعيدا عنه وأخرج الى الحقل الذي أملكه خارج المدينة، لعلي أحظى بهواء نقي وأستمتع بالشواء مع حفيداتي في هذا اليوم جلبت معي

صندوقاً خشبياً غريب الشكل، أحضرته للاستفادة منه في مشروعنا الغذائي أنا والحفيدات.

(١)

صندوق خشبي

كنت أريد حرق هذا الصندوق الغريب الشكل لشواء دجاجة مسكينة دعتني قدرتي للتسلط عليها ذلك اليوم شدّ انتباهي من أول لحظة وقعت عيني عليه، كان مغلقا بإحكام، استخدمت آلة لفتحه، وجدت به بعض الاوراق قرأت ما مكتوب فيها من باب الفضول ليس إلا، تبين أنها دفتر مذكرات قديم، تلك المذكرات قد كتبت بخط تصعب قراءته، وبإملاء صحيح، كتب في مذكراته تلك..... يقول: اليوم صار عمري ١٧ عاماً ولم أرث من أبي سوى هذه الحمارة (الأتان)، يبدو انها حملت من سفاح فلطالما لاحقها حمار جارتنا الجميلة فأولدها هذا الجحش الذي صار عبئاً اضافياً عليَّ، فهناك الوالدة وأختي الصغرى (شهلة) التي بقيت وحدها بعد زواج أخواتي الأكبر مني منذ فترة لابأس بها، وقد تحررت من أعباء مادية كبيرة كانت تثقل كاهلي، اليوم ازداد عدد اللذين أعيلهم، امرأتان وحماران، عفوا أم وابنتها، وحمارة وجحشها الصغير...لا أعرف ان كان هذا هو قدري أم سيتغير، فأنا مازلت شاباً يافعاً ولي من الهمّة ما يرضي طموحي وأكثر، ولكن أحتاج الى فرصة ولو صغيرة لأحقق ما تتوق له نفسي، وأخرج من عالم البهائم والحيوانات الى عالم آخر

فيه من البشر ما يجعلني أشعر بآدميتي، ولو أني أعتقد إن عالم الحيوان هو أنقى وأطهر وأصدق من كل العوالم الأخرى ففيه من الوفاء والصدق مالم يتوفر في عالم الإنسان، فقد رأيت ذلك جلياً خلال حياتي، وكيف تخلى عنّا الكثير ممن أحببناهم وسعدنا بقربهم، ولكنهم في النهاية تركونا لسبب أو آخر دون أن يقدموا لنا ولو اعتذاراً بسيطاً عما سببه لنا الفراق.

لقد اخذتني قراءة مذكرات (المچاري)[1] ونسيت الدجاجة المسكينة التي احترقت بفعل الاهمال.

غريب أمر هذه السطور، لم يكن مثل هذا الأسلوب في كتابة هذه العبارات ليصدر عن شخص يهتم بالبهائم فقط فهو أسلوب لشخص يمتلك من القدرة على الكتابة والحس المرهف الكثير، بالرغم من الخط السيء، إلا ان هناك تقنية عالية شدتني نحو هذه الورقة، وجعلتني أرغب بإكمال ما بعدها، لعلي أعثر بين سطورها على شيء يمتعني.

---

١ – المچاري: الشخص الذي يقوم بكراء حيواناته لنقل البضائع

(٢)

العثور على المذكرات

بعد ان يأست من الدجاجة التي احترقت بفعل الغفلة عدت لقراءة ما سطرته يد هذا الشاب الذي لم أعرف اسمه لحد الآن.

يقول في مذكراته: إن مع حبه للدراسة والحصول على شهادة جامعية الا أن متطلبات الحياة ومسؤولية توفير عيش كريم لأمه وأخته (شهله) كانت شغله الشاغل. يقول:.. لقد عملتُ ساعات طويلة لدى أصحاب البساتين في القرى القريبة لنقل المحاصيل الزراعية الى علوة المخضر وكان ذلك يتطلب مني النهوض المبكر أي مباشرة بعد الأذان وفي أحيان أخرى يؤذن لصلاة الفجر وأنا في طريقي الى العلوة، فالأمر عندي سيان، فهو لا يعنيني بأذانه، هكذا كنت اتكلم مع نفسي، فمثلي غير مطالب بإداء هذه الفرائض، أعتقد انها حكر على الأغنياء، أو لنقل فرض على الأغنياء فهم من يملك كل شيء الجاه والثروة والخدم امثالنا، فهم مطالبون ليقدموا فروض الطاعة والولاء، أمّا نحن الفقراء والجياع لماذا تلزمونا بهذه الفرائض... أحدث نفسي معتقداً أن هذه العبادات نوع من الترف الاجتماعي أو هكذا خُيِّل لي بأني حتى لو أردت أن أقوم بهذا الفعل

سوف أطرد من المسجد، فأنا لا ادخله إلا لغرض تحميل بعض الأشياء في العربة التي تجرها حمارتي، أو لتفريغ شحنة قد ارسلت لهذا المسجد أو الحسينية، وحدودي معها هي باحة المسجد فقط، ولا أعرف ما يدور خلف الجدران، مرات عديدة حاولت أن اكتشف ذلك، ولكني ردعت نفسي خشية أن اتلقى اهانة من شخص مسؤول هنا.. انتهى الأذان ولم اعد أميّز ذلك حيث اختلط صوت الاذان مع نهيق حمار جارتي ((شهيدة)) التي كانت تتبعني بعربتها وحمارها الذي يتبع حمارتي طوال الوقت... سمعت صوتها وهو ينادي ((كريّم)، وقد تكرر عدة مرات

- (ها كريّم (شِجاك)[1] ما تسمع)...

- نعم لم اسمع لأن صوت حمارِكِ غطى على كل شيء... اجابتني:

- هو يفعل ذلك كلما شاهد حمارتك، فأنت لا تعرف سرعته وهو يريد اللحاق بها ليشمها.

- سوف أقتله إن فعلها ثانية فأنا لا أقدر أن أعيل نفراً آخر في هذه العائلة.... ضحكت شهيدة ملء شدقيها وأرخت زمام الحمار ومالت الى الوراء بسبب الضحك وكادت ان تتسبب بحادثة اصطدام مع سيارة لولا انها انتبهت باللحظة الاخيرة وانتباه صاحب السيارة. كان ذلك قبيل ظهور قرص الشمس بقليل ونسائم الصباح الربيعي

---

١ – شجاك: ما بالك

كان تجلب معها رائحة القداح من تلك البساتين التي تقع على جانبيْ الطريق.

مازلنا نتمتع ببعض البراءة تساعدنا على الضحك ونتغلب على واقعنا المرّ فنحن نعيش على اطراف المدينة التي ترفض أن تعترف بوجودنا، أو حتى ترفض النظر الينا، فنحن غير مرئيين وغير مرغوب بنا، حتى من الناس اللذين جاؤا قبلنا بسنوات واستوطنوا هذه المدينة، فهم يعدون انفسهم الآن من سكانها الأصليين ونحن غرباء، وحسب تعبيرهم (لفوّة)[1] ونسوا انهم قبل سنوات كانوا (لفوّة) ايضا.

هذه هي مدينة الغرباء، مدينة الباحثين عن المأوى والأمان، اللاجئين الى احضان الرب، الهاربين من الخوف، ومن الجوع، فهنا على مدار العام مشارب الظماء مترعة، هكذا قال والدي لأمي حين اقنعها بالرحيل من قريتنا الى هنا.

١ – الغرباء القادمون من غير محافظات للسكن في المدينة.

(٣)

((شهلة))

هكـذا كنـت أقضـي معظـم أوقـاتي ولا أجـد الا الوقـت القليـل للمطالعة والحظوة بلقاء بعض الأصدقاء، لم يكن من بين أصدقائي سوى شخص أو شخصين خارج هذه الدائرة (حلقة المچارية) فهم بالغالب لا يهتمون بالقراءة بل حتى لا يجيدونها، وكنت أمثل لهم نمطا مختلفا ضمن هذا المجتمع، فهم ينظرون لي بنظرة مختلفة، ويعتبرونني مثقفاً في حدود معرفتهم للثقافة، ولكني كنت أجد نفسي ضعيفاً أمام اقراني ممن كنت أدرس معهم حتى نهاية المتوسطة.

عندما أرجع للبيت أحاول أن أعتني بالحيوانات، وأقدم لحمارتي وجحشها الصغير العلف، وأنظف الحظيرة، وأختي شهلة تتقاعس عن تنظيف الحظيرة، بل تستنكف حتى لا تعلق رائحة فضلات الحيوانات بثيابها التي لا تملك غيرها للذهاب الى المدرسة، فهي تمتلك تطلعات وآمالاً كبيرة في اتمام دراستها، واختيار شريك حياتها، على عكس أخواتها اللائي لم يحصلن على فرصة حتى للحلم في اختيار شريك الحياة، عندما تقدم سعد بن حمادي الحمّال

لخطبة (سليمة) وجواد ابن خلف (البنچرچي)[1] لخطبة (شريفة)، سرعان ما تمّ الزواج وانتقلتا للعيش في بيت زوجيهما، وغادرتا البيت بشكل سريع ومفاجئ حتى لا اتذكر أي مراسيم مهمة اقيمت لهاتين المناسبتين.

بقيت شهلة وحيدة في الدار ترافق أمها وتتبعها بعد ان خلت الدار من اخواتها، وبدأت تنمو وهي وحيدة، عندما صار عمرها ١٣ سنة، بدأت مفاتن جسدها تتغير وصارت امي تطالبني بشراء بعض الاحتياجات الخاصة بها، وكنت كلما تساءلت عن ذلك كانت تردعني بقولها (ما عليك لا تسأل هاي سوالف نسوان انت ما تعرفها).

كنت انظر لعيون الشباب في المنطقة، وهي تحاول افتراسها عند ذهابها للمدرسة، حرصتُ على حمايتها من بعيد حتى لا يتعرض لها احد، شهلة فتاة جميلة منحها الله مواصفات لم تحظ بها اختاها، فهي رشيقة، وطويلة بعض الشيء ذات وجه مدور وعينان عسليتان وانف دقيق وشفتان للغلظة اكثر منها للدقة، كنت أراقب أمي وهي تمشط شعرها الأشقر الذي يصل الى عجيزتها، وأستغرب من نعومته على عكس أختيها، حيث كان شعرهما مائلاً للسواد وفيه جعدة خفيفة، وكذلك كان شعري ايضا ولون بشرتي الحنطي المشرب بالحمرة كان يضفي عليَّ بعض الوسامة، كانت تمشي

---

١ – الشخص الذي يقوم بإصلاح الاطارات المثقوبة للعجلات.

منتصبة بصدرٍ ناهد يثير كل شباب المنطقة وكان يطلق عليها (بنت المچارى)، حرصت على أن لا تراني فهي تأنف من كل ما يمس كرامتها وترفض أن يشك بها أحد، اليوم عادت من المدرسة وهي تحمل دفاترها على صدرها تمشي بين زميلاتها مطرقة الرأس تنظر الى الأرض التي بللها المطر وترك عليها الكثير من المياه، كانت تقفز برشاقة لتتحاشى الخوض في تلك المياه في حين راحت نسائم الشتاء تداعب خصلات شعرها الذهبي فهي لم ترتدِ العباءة بعد، لا أعرف لماذا أرى العيون تتجه اليها دون بقية البنات. وقفت اتأمل مشيتها فأعطيتهم الحق بذلك.. لطالما تصورت ان شهلة مخلوق لم يخلق لهذه الاجواء انما لدنيا غير هذه التي نحياها، لم يكن بإمكاني أن أرفض لها طلبا مذ كانت صغيرة، وهي تعرف اني متعلق بها وأنفّذ كل رغباتها، حتى لو حرمت نفسي من كل ما اشتهي لتبقى طلبات شهلة لها الأولوية في التنفيذ، كانت والدتي تسعد لهذه العلاقة الحميمية بين أبنائها.

(٤)

(شهيدة)

تتكرر لقاءاتي مع شهيدة تقريبا كل يوم، كانت هذه الارملة الطروب تمازحني باستمرار، وكان مزاحها يهيجني، فهو ذو صبغة جنسية عارمة ولطالما سعيت لتجنبها لأني غير مستعد لأزيد من اعبائي فلديّ ما يكفي.

تتقصد بأن تجعل حمارها يتقرب من حمارتي، كنت اردعه بقسوة خوفاً من ان يحدث أي حادث لها يعطل عملي، ويثقل كاهلي، فأنا لا املك سواها وسيلة للعيش.

رائحة الأنثى تفوح من بين جنباتها، هي افرازات الرغبة الانثوية التي تدخل أنفي حين تقترب مني تلك المخلوقة التي رغم البؤس الذي تعيشه فهي تنشر حولنا جواً من البهجة والسعادة، اقتربت من القناعة بأنّ السعادة هي الأنثى، ولكن أية انثى التي يجب أن اختارها لسعادتي.

كم يسعدني حين تمسك بيدي وتضعها على صدرها وهي تطلب مني أن أستمع الى دقات قلبها المتعب، كنت أضحك في سري لمعرفتي مبتغاها، فهي لم تيأس مني ولم تكف عن محاولاتها

استدراجي الى أحضانها.

كان الصراع مع النفس يستنزف تفكيري وجهدي، احاول اقناع نفسي بشتى الوسائل ولكن للطبيعة حكمها وفروضها فأنا مازلت فتياً وتحركني شهواتي، ربما تكون شهيدة هي المتنفس الوحيد الذي سيصادفني في حياتي ولا داعي لإهدار هذه الفرصة، وفي النهاية تمكنت مني بشكل وآخر وجذبتني الى احضانها.

قررت اكمال دراستي المسائية عَلْي أحصل على شهادة تنفعني بالمستقبل، فقد غادرت مقاعد الدراسة مباشرة بعد المتوسطة، وأنا الآن امام خيارين، اما ان اجلس على مقاعد الدراسة لأكمل سنتين، واستوفيهما بشكل تام، او اقدم لدخول الامتحان الخارجي، وهذا يتطلب مني جهدا كبيرا في دراسة المواد المقررة للخامس الادبي، وثانوية نقابة المعلمين المسائية هي الاقرب الى منطقتنا.

هكذا وضح لي بعض الزملاء القدامى اللذين كنت التقيهم عند المكتبة الأهلية ضحى كل يوم وهم يقتنون الصحف منها كان صاحب المكتبة (فاضل الكتبي)[1] يعرفهم بشكل جيد وهو يسدي اليهم النصح في كل شيء ويعرف ماذا يقرؤون، فهو يحجز لهم نسخهم من تلك الصحف والمجلات الملونة التي أراها بيدهم، كان بعضهم يتابع نوع خاص من المجلات الفنية اضافة للصحف

---

١ – صاحب المكتبة الأهلية تم تسفيره الى ايران كونه من رعاياها في مطلع السبعينيات وعمل هناك في التجارة في بازار طهران.

اليومية.

حسنا سأذهب الى تلك المدرسة، وأجلس معهم في الصف، فهم لا يدققون حتى وان دققوا فسأطلب من الاستاذ ان اكون مستمعاً وأحافظ على الهدوء.

حين عادت شهيدة الى والديها بعد وفاة زوجها وهي تحمل رضيعها، كانت منكسرة وحزينة، فهي تدرك تماما انها عادت للبؤس من جديد في بيت والدها الذي لا يملك سوى هذه العربة التي يجرها الحمار، ولا يوجد من يعمل عليها بعد ان كَبُرَ والدها سوى امها العجوز، حيث تخرج بين الفينة والأخرى، وبشكل متقطع للحصول على قوت يومهما، ربما كان يكلفها بعض اصحاب البساتين بجمع بقايا الأكل من النفايات والمزابل ليستخدم تارة علفاً لحيواناتهم، وتارة أخرى كسماد عضوي لمزروعاتهم، ولكن بمجيء شهيدة وهي البنت الوحيدة التي بقيت لهم بعد أن ذهب اخواها الى غير رجعة تغيرت الامور، فالكبير ((راشد)) ذهب ضحية نزاع نشب في مقهى العباسية الشرقية حيث تم طعنه بعدة طعنات توفي على اثرها، ولم يتمكن احد من تحديد هوية القاتل وسبب القتل، والثاني ((محمود)) ذهب بحرب الشمال وضاعت اخباره فلا يوجد من يسأل عنه.

بعد اكمال عدتها ظهرت شهيدة بشكل لم أره من قبل فهي تشبه الى حد كبير ملامح صور الممثلات المشهورات ومفاتنهن، كان عمرها مقارب لعمري حيث اكبرها بشهرين فقط، فهي حين تربط

عباءتها على خصرها تبرز عجيزتها وصدرها المكتنز بشكل مثير، لم تكن بالطويلة ولا بالقصيرة كانت قواما بين ذلك، كانت (الفوطة)[1] تغطي شعرها عدا مقدمة الشعر (الگذلة)[2]، شفتاها غليظتان مع تقوس في الشفة العليا وكأنما خلقت للقبلات، هي دائماً بحجة السؤال تقف بجانبي وتتطاول معي ولطالما اتيح لها الالتصاق بي بشكل سريع، وهي تقصده وتعتذر عن ذلك بعبارتها الممزوجة بالغنج ((يا سودة عليَّ عورّتك))[3] فأرد عليها لا تهتمين شهيدة واتبعها بعبارة لإغاظتها ((احنا مثل الاخوة)) لأرى مقدار الانزعاج الذي يرتسم على وجهها فأضحك منها في سري. والحقيقة انا اشتهيها اكثر مما هي، ولكني كنت اكثر عقلانية من الدخول في مثل هذه العلاقة التي اتوقع منها ان تشغلني عن بناء مستقبلي، فمثل شهيدة لا يمكن ان تساعد على بناء مستقبل والوصول الى طموحاتي...هكذا كنت اقول لنفسي. ولكن كانت شهيدة بمثابة صمام امان لي فهي من كنت افرغ معها كل شحنات المراهقة والشباب.

---

١ – ما تضعه النساء الريفيات كغطاء للرأس وقماشه مصنوع من خيوط البريسم.

٢ – شعر مقدمة الرأس

٣ – عبارة تستخدمها النساء العراقيات للتأسف والمواساة.

(٥)

عمتي حورية

اليوم كنت أقلب بين الأوراق الرسمية والتي خزنها والدي في كيس ورقي احتفظت به أمي ضمّ كل اوراق العائلة الرسمية لاحت لي صورة قيد باسم ((حورية عبد الواحد كاظم)) وصورتها الشمسية ورغم سوء التصوير الا ان ملامح الجمال صارخة، آه كم اشتاق لرؤيتها كنت طفلا صغيرا حين اخذها عمي (قاسم) الى بيت زوجها في الرميثة تعلقت بعباءتها وانا ابكي اريد الذهاب معها وكأن قلبي يعلمني بأني لم ارها ثانية، ذهبت الى بيت زوجها. هذا جواب امي دائما عند سؤالي عنها. كانت صرخاتي تذهب ادراج الرياح، اتذكر وانا اركض وراءهم احاول اللحاق بهم، حينها لم يكن يستر جسمي الا ثوب خفيف من قماش (البازة)[١] وحافي القدمين بالرغم من برد الشتاء القارص، كنت اخوض في الوحل الذي تسببت به المياه المتجمعة من الامطار التي نزلت بكثافة قبل يومين، مرضت على اثرها مرضا شديدا ورقدت في الفراش عدة ايام، مازالت صورتها وهي تحمل صرة ثيابها وتمشي خلف عمي ماثلة امامي.

---

١ – نوع من القماش الرخيص يلبس في الشتاء.

وأنا انظر الى صورتها كم فاجئني مقدار الشبه بينها وبين أختي شهلة وكأنهما نسخة واحدة، اخذتُ الصورة لأريها لأمي.

أمي: انظري كم هو الشبه قريب بين شهلة وعمتي حوري التي فارقتنا منذ سنوات طويلة.؟

حبست أمي أنفاسها وتغيّر مزاجها وأومأت برأسها علامة على الموافقة، ولم تنطق ببنت شفة، وكأنّ شيئا قد أيقظته هذه الصورة في نفسها، ولكني لم اعبأ بهذا، أردفتها بسؤال آخر:

- أمي: لماذا لم تزرنا عمتي منذ ان تزوجت لليوم؟... اجابت بلا مبالاة:

- لقد تخاصمت مع أبيك على ميراث الأرض، حيث باع أبوك كل الارض ولم يعطها شيئاً منه، وهي اقسمت على ان لا تزورنا ولا تريدنا ان نزورها..

- عن أي ارض تتحدثين يا أمي؟

- عن أرض أبيك وجدك.

- ولماذا باع أبي تلك الارض ولم يبق فيها بين أعمامي وأخوالي هناك؟

- هذا السؤال لا جواب عندي له كان يفترض ان يجيبك ابوك لو كان حيّا أما انا فلا.

سكت الكلام وانسحبتُ بهدوء حاملاً الصورة بيدي وتساؤلات كثيرة ملأت رأسي، ولكن الوقت غير مناسب لذلك. ولكن لم تزل

تلك الذكريات تلحّ عليَّ، فأنا اتذكر انها كانت تعمل بأحد بيوت الموسرين خادمة، بعد أن كانت تعمل (طواشة)[١] في بساتين الأغا، كانت عندما تأتي مساءً تحتضنني وتجلب لي بعض الحلوى التي تشتريها من (العطار) ولم تكن اكثر من (حامض حلو أو چوكليت ابو منير في احسن الأحوال)[٢] كانت رائحة المسك التي تضعها عمتي تعلق بثيابي، كنت اشم رائحتها عند دخولها (العگد)[٣]. لم يكن ينقص من جمالها بساطة ملبسها والفوطة التي تضعها على رأسها فهي تسمح لشعر مقدمة الرأس (الگذلة) بالظهور، عندما كانت تخلع فوطتها كانت تكشف عن ضفائرها الذهبية وهي تتدلى على صدرها الذي قُدّ من مرمر لم تكن المتغيرات الجوية لتعبث بجمال وجنتيها، كنت أرى فيها الجمال والحنان كله ولم أصدق أو اتخيّل انها تهجرني لمجرد قطعة أرض اختلفت مع والدي حول بيعها، ولم يكن والدي من النوع الذي يمنع عن أخته أي شيء فهو يحبها حد الجنون وطالما يردد انها أمانة أمي ووصيتها ومحبوبة أبي، رحمك الله يا أبي ألم تجد وسيلة للتراضي مع عمتي حوري بدلاً من تلك القطيعة؟.

---

١ – النساء العاملات في جني محصول التمور في موسم قطافه وغالبا ما يكون نهاية ايلول وبداية تشرين الاول.

٢ – نوع من الحلويات المشهورة لغاية السبعينيات.

٣ – الشارع وجمعها عگود وتتألف منها المحلة.

(٦)

(الامتحان التمهيدي)

اكملت تسجيلي في مديرية التربية للامتحان الخارجي وتم تحديد يوم الامتحان التمهيدي وانشغلت بالمطالعة، لقد قلصت مدة عملي واقتصرت على فترة الفجر حيث استمتع بغزل شهيدة وغنجها ومشاكسة حمارها لحمارتي بدأت افسح لها المجال للتقرب مني فأنا بحاجة ملحة للشعور بالهدوء، صحيح اننا لم نحظ يوما بخلوة او ممارسة جنسية كاملة ولكننا كنا نحصل على جزء من هذه المتعة بطرق بدائية وسريعة فهي تخاف من الحمل وأنا ادرك خطورة هذا الفعل ولهذا ابقينا الأمور على هذه الحال فالمداعبات الخفيفة التي كنا نختلسها من عمر هذا الوقت الصعب كانت كافية لكلينا ولأننا لم نتمادَ يوما اكثر من المتفق عليه بقيت علاقتنا مستمرة لفترة زمنية طويلة.

كان الصيف قد بدأ مبكرا هذا العام، فقد سرق الكثير من وقت الربيع على غير عادة، وقد حان موعد الامتحان التمهيدي وحبست الانفاس، ولكني كنت مصراً على اجتياز هذا الامتحان التمهيدي بالرغم من حرارة الجو وعدم توفر وسائل الراحة والتبريد فكل ما

نملكه بالبيت هو مروحة يدوية (المهفة)[1].

لم أكن أتخيل قدرتي على الحفظ، فها أنا اليوم أكملت امتحان اللغة العربية بكفاءة عالية واكتشفت قدرتي على الحفظ، بمجرد قراءتي للأسئلة بدأت اكتب الاجابات بيسر، كانت الأمور تسير بشكل غير متوقع فقد تجاوزت كل حساباتي ولم اتوقع هذه السهولة، فكنت مسرورا للغاية وانا اجتاز الامتحان التمهيدي، ولكن لم يستمر هذا التفاؤل كثيرا حيث صدر بيان التعبئة والاحصاء في وزارة الدفاع، وتمّ استدعاء مواليدي للالتحاق بالخدمة العسكرية الالزامية، وهنا وقعت في حيرة، كيف لي ان اكمل الامتحان النهائي وهناك دعوة للخدمة الالزامية، والتي سيرتبط مستقبلي كليا بها، فبدون اكمال الخدمة الالزامية والاحتياط لا تنفع اية شهادة.

في هذه الأيام أنا شديد الحذر بعدما نبهني أصدقائي الى خطورة الموقف السياسي بالبلد فهناك في الأفق تلوح عدة متغيرات،

- قال لي سيد فائز أن اتجنب اللقاء به لفترة حتى لا أحسب على أية جهة سياسية فأنا لا دخل لي بالسياسة.

- عندما سألته عن سبب تلك المتغيرات؟

- قال لي انها الأحزاب يا صديقي فكن حذرا قدر ما تشاء فالكل اليوم يسعى للحصول على السلطة، هل تتذكر عماد وبهاء وسعد زملاءنا.

---

١ – مروحة يدوية تصنع من خوص النخيل

- قلت نعم.

- قال الآن هم في المعتقل لانتمائهم لأحد الأحزاب الدينية، ونحن الآن مطاردون. اكرر عليك أن تحذر وعدم التواجد بيننا على أقل تقدير خلال هذه المدة.

وأنا وسط هذا الزحام مشغول برسم خطواتي المستقبلية للخروج من هذا الواقع، فالفرص مواتية اذا ما احسنت اللعب فيها. بينما كان بعض زملائي قد استهوتهم لعبة السياسة وانغمسوا فيها، لم اكن ارغب حتى بالاقتراب منها.

(٧)

(الخدمة الالزامية)

اليوم وعندما كنت اقرأ الصفحات التالية فوجئت بصفحات مفقودة من هذه المذكرات وكأنما انتزعها أحد ما وهذا ما جعلني استنتج الكثير من الاستنتاجات غير الحقيقية، اكتشفت ذلك بعد أن وجدت تلك الاوراق مرفقة بالأوراق الأخيرة وقد أرفقت بواسطة دبوس بعناية فائقة وهذا ما اثار دهشتي. أن شخصاً منظماً كهذا الشخص كيف له ان يفقد مذكراته بهذه السهولة، ولابدّ إن شيئا قد حصل ليضيع مثل هذا الصندوق.

عدت لقراءة تلك الأوراق المرفقة في نهاية المذكرات حيث كتب فيها:

نهاية كانون الثاني ١٩٦٦ التحقت بمركز التدريب الخاص بالمشاة، ولم يكن يفصلني عن الامتحانات النهائية سوى بضعة اشهر، والمطلوب مني تحضير المواد بشكل كامل، والاستفادة من هذا الوقت بمراجعة كافة الدروس، ومطلوب مني الاهتمام بعائلتي التي لامعين لها سواي، وخياراتي قليلة، فعملية النزول من حامية النجف الى مدينتي كانت مكلفة، والواقع الجديد كلفني من تفكيري

الكثير، فأنا قليل الحيلة مقارنة مع زملاء المهنة (المچارية)، فهم يمتلكون حيلة واسعة وقدرة على التحرك باتجاهات مختلفة ليرضي ر.ع وحدة بهدية بسيطة، او بكلمات منمقة للسماح لهم بالتحرك والنزول، اما انا لم اكن اجلس معهم في المقاهي الخاصة بهم تجنبا للمشاكل والعراك الذي يحدث دائما في مثل هذه المقاهي، وينتهي بنهايات مأساوية، مثلما انتهى الأمر بأخ شهيدة (راشد).لا الوالدة سمحت بذلك، ولا انا سمحت لنفسي، ففي المرة الوحيدة التي طلبت من أمي فيها الذهاب الى تلك المقهى، امسكت بجلبابي بشدة والقت عليَّ محاضرة فيها كل أنواع التهديد والوعيد، والحقيقة أنا كنت نفسي مترددا بالذهاب، وعند سماعي تلك الخطبة العصماء اقفلت على الموضوع، وبقيت على اتصال مع اصحاب البساتين الذين عَمَلَ معهم والدي رحمه الله.

كان رئيس عرفاء الوحدة شخصا حازما، وبقدر ما هو حازم كان يمتلك نظرة ثاقبة في الناس كان أجش الصوت، ويمتلك جسماً رياضيا، معتدل الطول، اشيب الذوائب، قد تجاوز عمره الخامسة والاربعون، يضع عطرا اعتدت ان اشمه عند الكثير من الزائرين، ويعرف جيدا ما يراه وله قلب رحيم ومتعاطف مع من يستحق، لا اعرف ان كان هذا هو الأنموذج العسكري الذي قدمته الجندية العراقية آنذاك، ام انه حالة نادرة لم استطع ان اعرف جواباً لسؤالي، لأني غادرت المعسكر الى غير رجعة بفضل هذا الرجل، فهو كان

يتابعني، ويرى شرود الذهن والحيرة التي بدت واضحة على وجهي، فأرسل بطلبي الى مقره، وذهبت الى هناك لأرى ما يريد.

– سألني عما يشغل بالي فقال لي لماذا أراك شارد الذهن دائما ولا تحاول ان تتقرب لي مثلما فعل اقرانك، وتذهب الى البيت كل يوم كما يفعلون.؟

– انا يا سيدي اعيش حالة من الكفاف، كوني وحيد لأسرتي المتكونة من والدة واخت، واما الوالد فمتوفي، ولا يوجد معيل لهذه العائلة غيري، وهذه المبالغ التي يمكن انفاقها على الذهاب والاياب ممكن ان تنفع عائلتي، كما اني اريد اكمال دراستي الاعدادية، وانا هنا جالس للقراءة فقط فجوّ المعسكر يوفر لي الوقت الكافي لذلك.

– طيب انت تقول انك الوحيد المعيل لعائلتك، لماذا لا تقدم طلب اعالة لتسريحك من الجيش كونك المعيل الوحيد للعائلة؟

– حقا هذا ممكن ان يحدث، وما المطلوب مني ان افعل؟

– انا سأساعدك على ذلك كن مطمئنا.

عجيب أمر هذه الحياة، كم كنت أخشى الاقتراب من هذا الرجل واتحاشى ان يراني، ولكنها الدنيا تجعل لنا في كل مسلك نسلكه من يرانا بعين مختلفة عن الآخرين، ويبقى من الصعب علينا ان نخمن ما مدى صعوبة تلك الخطوات التي كنا سنخطوها للمضي الى ما نريد، فهناك دوما من يسعى لمساعدة الآخرين سيقيضه الله لنا.

يبدو أن الحظ قد ابتسم لي، ولعل البداية ستكون من هنا،

فالفرصة التي كنت انتظرها ها قد جاءت وما عليَّ سوى اغتنامها، فباشرت بإنجاز معاملة التسريح.

(٨)

(الامتحان النهائي)

لم تكن رحلة انجاز معاملة الاعالة سهلة ولا بسيطة لشخص في مثل عمري وخبرتي، التي تكاد تكون صفراً، ولكن توجيهات ر.ع خضير كانت خير معين فهو يرشدني الى الدائرة الصحيحة، ويعلمني ما يجب قوله، وما يجب ان لا اقوله، ففي كل مرحلة كنت اذهب اليه واستمع الى نصائحه وارشاداته بدقة، وانفذ كل ما يقوله لي، والحقيقة كانت ارشاداته خير معين، فكل ما قاله لي كان ينم عن خبرة، ودراية بالموضوع، فهو يعرف تماما ما يحدث خلف الابواب المغلقة في دوائر الدولة.

كنت خلال هذه الفترة أعود متأخراً للبيت وأغادر مبكراً ولم تسنح لي رؤية شهيدة.... آه كم غفلت عن ملكة الغنج والشهوة، كم اود لقاءها كما تعودنا فهي تطفئ عندي مكامن التعب والغضب، لم اعد اسمع نهيق حمارها، ذلك الحمار الذي اغتصب حمارتي عدة مرات، فها هو ابنه يمرح في فناء دارنا، اعتقد انه يشعر بالفخر حين يرى ولده يملأ المكان مرحا ولعبا، ترى متى ستفخر مثله يا كريّم، متى سيكون لك مثل هذا الحمار، ربما عجزت ان تكون مثل هذا الحمار

ففي شهيدة مشروع كبير لمثل هذه الولادة، ولكن؟؟؟

- أي افكار تداهمك وأنت في حالة لا يعلم بها الا الله؟

- أي افكار خبيثة هذه التي تحاول ان تسيطر عليك تجاه هذه المخلوقة الملائكية التي وهبتك كل شيء؟

- أيمكن اذا فعلت معها ما يشين ستسامح نفسك؟

- كلا لم ولن أسمح لنفسي ان اعكر حياة هذه المخلوقة التي اضفت على حياتي السعادة، فهي أحسنت لي، ومن الواجب أن أرد لها الاحسان، وأترك الامور على ما هي عليه دون زيادة او نقصان. حديث النفس كان يملي عليَّ الكثير من حالة الانضباط والتريث في اتخاذ أي قرار فأنا اعيش كالنبتة البرية ليس لي من الأهل سوى والدتي التي لم تفقه في امور الدنيا غير انجاز مهماتها البيتية فهي قد انتزعت من ارضها التي كانت تزرعها وابقارها التي كانت تحلبها وشويهاتها التي كانت ترعى بالقرب منها فهي تمرست على الزرع والحصاد، هنا قد انتهت هذه المهمات ولم يعد هناك أي شيء يثير اهتمامها سوى العناية بنا انا وشهلة وتوفير الطعام لنا وبقية المهمات المنزلية البسيطة، لعل اكثر الاشياء التي جعلتني اسير بخطى ثابتة نحو اهدافي تلك القرارات التي اتخذتها عن دراية ورويّة.

وأخيراً جاء اليوم الذي انجزت فيه المعاملة، وتم تأشير دفتر الخدمة خاصتي بذلك، فودعت ر.ع الوحدة خضير وبقية رفاقي،

وغادرت محملا (يطغي)[1] على ظهري عائداً الى الدار لأكمل مسيرتي، دون ان التفت الى الوراء ففي النظر الى الأمام نوع من ازدهار النفس واعطاء جرعة امل، وخصوصا بعد أن علمت من زملائي بأنهم قد يتم قبولهم في جامعة بغداد وباختصاصات مختلفة، وهذا ما بعث الأمل في النفس، وحانت ساعة الامتحانات النهائية،

كانت أيام حزيران ثقيلة علينا بحرارتها كنّا نلجأ للبساتين المحيطة بنا للمطالعة والاسترخاء تحت ظلال الاشجار، حيث يسمح لنا اصحابها بدخولها كوننا طلبة ويتعاطفون معنا وفي بعض الاحيان يكون اصحاب البساتين هم من اهالي بعض الزملاء. وسرعان ما مضت ايام الامتحانات مخلفة وراءها شعوراً بالخوف والترقب.

كان يوم اعلان النتائج يوماً مشهودا، كنت أجلس بالقرب من المذياع حيث تعلن النتائج تباعا، وحسب المحافظات، كانت نتائج اعدادية نقابة المعلمين المسائية عدد الناجحين اثنان فقط الاول هو كريم عبد الكاظم عبد الواحد كاظم آل هدهود بمعدل ٧٥% والثاني اسماعيل ضيدان مهلهل ٦٢.٥% لم تكن تلك المفاجأة متوقعة ليس للنجاح فقط بل المعدل الذي حصلت عليه يؤهلني لاختيار الكلية التي احلم بها وهي الحقوق، ولكن كيف؟؟؟ والحال من سيء الى اسوأ فلم أعد ارغب بالعمل على تلك العربة.

---

١ – الفراش الذي يستخدمه الجنود.

بمجرد سماعي للنتيجة، كان هناك شعورٌ جديدٌ قد ولد بداخلي وأخذ ينمو مثل حبة الفاصولياء السحرية، فرغبتي بالعمل على العربة قد تلاشت تماما، وصرت انظر بنديّة الى كل زملائي الذين فارقتهم بالمتوسطة وأحاول أن اقول لهم ها انا قد لحقت بكم، واجتزت كل المعوقات لأتفوق عليكم، المعدل الذي حققته كان حلم كل افراد مرحلتي ليضمن لهم الحصول على كلية الحقوق.

لم اشعر بالزهو في حياتي مثلما شعرت به في ذلك اليوم فأنا اثبّتُ اني لا أقل عن بقية زملائي كفاءة، وتخلصت من شعوري بالدونية ولو لبعض الوقت.

(٩)

الحياة الجامعية

لم تكن الأمور تجري بما هو مقدر لها، فأنا وبالرغم من عدم قدرتي على تحمل مصاريف ونفقات الدراسة كنت مصراً على اكمال مشواري التعليمي بأي شكل من الاشكال حتى لو اضطرني الأمر للاستجداء سأفعلها، ولكن اصدقائي كانوا اوفياء جداً معي، فهم من زودوني بالملابس التي لم اكن أملك ثمن شرائها، ووفروا لي فرصة عمل في الدوام المسائي في مصنع التعليب، فقد كان ذلك عاملا مساعدا لي في اتمام دراستي، فقد كنت أحصل على مخصصات القسم الداخلي كوني طالب محافظات واحصل على اجري من العمل في (الشفت)[١] المسائي، بالرغم من ذلك كنت اقتر على نفسي حتى الجلوس مع زملائي في النادي، ربما احتاج الى قدح من الشاي كنت اشربه عند صاحب الكشك الموجود خارج النادي، بعد أن استقامت الأمور وبدأت تسير بشكل ممنهج كدت أركن للراحة النفسية التامة وأتفرغ تماما للدراسة في أوقات فراغي بعيداً عن المجاملات التي لم اكن أمتلك ثمنها، ولكن عند عودتي يوم

---

١ – المناوبة بالعمل.

الخميس من دوام الكلية وقد عدت مبكرا لقضاء بعض لوازم الدار، الا اني فوجئت بحريق هائل قد التهم منازل المنطقة كلها، وخلّفَ وراءه الكثير من الموتى والمصابين والحيوانات النافقة وكان من ضمنها حمارتي وجحشها ولكن الحمد لله تمكنت والدتي واختي، وشهيدة ووالدتها من النجاة، ولكن والد شهيدة فقد حياته في هذا الحريق بسبب الاختناق فهو رجل مسن ومريض.

وبعد ان التهمت النيران منازلنا التي كانت قريبة من البساتين المحيطة بالمدينة في منطقة المقلع، كان يوما مشهودا حبست فيه الانفاس من هول الحريق، فبيوتنا كلها من القصب ومتراصفة بالقرب من بعضها البعض، أي بمعنى اذا احترق أي منزل من هذه المنازل سوف يأتي الحريق الى اخر منزل، وهذا ما حدث بالفعل حيث انتقلت النيران بفعل الرياح العالية السرعة، وبالرغم من ان مديرية الدفاع المدني كانت في الجهة المقابلة لنا عبر المبزل الرئيسي وملاصقة للإعدادية المركزية للبنين الا ان الأمر خرج عن السيطرة ولم تتمكن فرق الاطفاء من اخماد النار الا بعد حين وتسببها بخسائر جسيمة وتشريد عشرات العوائل.

كان لابد لنا من الحصول على سكن وبشكل عاجل، وسرعان ما تواصل معي الاصدقاء المخلصين وقد تم ايجار منزل متواضع لي ولأمي واختي وقد تم تزويدنا بأغطية وفرش بسيطة لقضاء الليلة، وقد استضفنا معنا شهيدة وابنها وأمها اللذين سرعان ما غادروا

المنزل بمجرد انتهاء اليوم السابع لوفاة والدها، قررتا العودة الى المدينة التي جاؤا منها، فلم يعد لهما هنا شيء، فالبيت (الصريفة)[1] قد احترقت والحيوانات ماتت والعربة قد احترقت والوالد توفي، كانت شهيدة تودعني بنظرات ملؤها الرجاء والامل بالعودة واللقاء، ولكنها كانت تدرك تماما ألا عودة ولا لقاء بعد اليوم، لم اكتم مشاعري في تلك اللحظة، فشهيدة هي المرأة الوحيدة التي اثارت رجولتي وذقت معها حلاوة الحب.

لم يكن هذا الحادث عبثيا – هكذا افترضت – انما حصل حرقَ معه مرحلة مهمة في حياتي لم ارد أن يعرفها احد بعد الآن فتباشير التغيير قد لاحت بالأفق ولا يمكن ان ابقى كريّم (المچاري) ويجب ان اعد العدة للوضع الجديد، وحددت اولوياتي في الاهتمام بمستقبلي ومستقبل شقيقتي الصغرى شهلة التي بدأت تتفجر انوثة وذكاء وجمالاً.

---

١ – البيت الذي يبنى من القصب والبردي.

(١٠)

حياة جديدة

لقد كانت اعادة بناء هذه الصرائف غير مجدية فالدولة تدخلت لتجنب الاهالي هذه المأساة مرة ثالثة، فهناك مرة سبقت هذه الحادثة، حيث قام الاهالي المتضررون بتقديم طلبات للبلدية حول تمليكهم الاراضي بعد ان تم ادخالها ضمن التخطيط العمراني الأساس للمدينة، وتم تسجيل كل قطعة باسم شاغليها، بعد أن تم تخطيط الطرق والخدمات الاخرى لها والحمد لله كانت قطعة الارض المخصصة لنا بعد ادخالها ضمن المرتسم هي ٣٠٠ ثلاثمائة متر في منطقة بالقرب من الامام، ممكن بيعها بسعر جيد، وفعلا هذا ما حصل بعد صدور (سند الطابو)[١] قمت ببيعها بـ اربعمائة دينار الامر الذي مكنني من شراء دار مناسبة في احد الاحياء الجديدة، فهناك لا يعرفني أحد والكل بدأ يناديني بأستاذ كريم بعد أن عرفوا اني طالب حقوق، سارت الأمور في هذا الحي على ما يرام في كل شيء، وصار الخاطبون يتقدمون لأختي شهلة، ولكنها ترفض كونها تريد اكمال دراستها رغم الحاح والدتي وشقيقاتي الاكبر عليها، إلا انها كانت مصرة والكل يحسب لها حساباً، ولا يجرؤ أحد على فرض أي شيء عليها، فهي معتدة برأيها

---

١ – وهو سند التسجيل العقاري.

حيث نضجت شخصيتها حتى صارت والدتي تستشيرها في كثير من الامور التي تخص المنزل، حتى عند زيارات شقيقاتها كانت تجلس معهن مجلس المستشار العليم، وتوجههن في كل شيء، والحقيقة كل نساء العائلة المتكونة من أم وثلاث أخوات كنَّ يخضعن لرأي شهلة التي كانت قد بدأت دراسة الاعدادية في الصف الرابع العلمي وبدأ نمط الدراسة يتغير بفعل المستحدثات في التعليم فقد تم استحداث صف السادس العلمي بعد التغيير الذي حدث في نظام الحكم.

لقد تجذرت في شهلة تلك الصفات التي ورثتها عن أمها دون أن تعلم، فها هي الموروثات الجينية تتلاعب بنا دون أن نعرف مصدرها، لا شهلة تعرف سبب هذا الاعتداد وأنا كذلك.

لم تستمر الأمور على هذه الوتيرة فقد حدث مالم يكن بالحسبان. لقد رأيت مَن كنت اتمنى ان تكون زوجتي في يوم من الأيام، فهذه المواصفات قد حددتها وأنا مراهق، ولم يكن في حساباتي أن أجد مثل هذه المواصفات، وبهذه السهولة فقد كانت مواصفات تعجيزية وهي مواصفات (عمتي حوري)، فكل شيء فيها ينطق على أنها صورة طبق الاصل منها، فنفور صدرها وشعرها الذهبي المتدلي على صدرها وانتصاب قامتها بل وابتسامتها التي واجهتني بها، حين رأتني احدق فيها وعلامات الدهشة بادية على وجهي بشكل لا يوصف، لقد اضاعت كل هيبتي بل سحقتني تماماً ومضت لا تلوي عن شيء سوى ابتسامة تنم عن كبرياء وثقة بالنفس.

لقد تركت هذه النظرة التي رمقتني بها هذه المخلوقة حملاً ثقيلاً على صدري لا أعرف كيف اتخلص منه، فأنا في خضم مشوار طويل بدأ للتو، فهناك دراسة الكلية، وهناك العمل المسائي، وهناك التزامات البيت ومتطلباته، كيف سأوفق فيها اذا ما أضفتُ هذا العبء الجديد اليها، لقد طرحت على نفسي الكثير من الاسئلة :

- من تكون هذه الانسانة؟
- وهل هي مرتبطة ام لا؟
- وهل ستقبل (بواحد مچاري مثلي)؟، فهي كما يبدو عليها من اسرة مرموقة وعريقة وكما يطلقون عليها (بنت ولاية)[١] وهل ستقبل (بواحد لفوّه، ومهتلف مثلي)[٢]؟ مازلت اعاني من حالة الدونية التي سببتها تلك المرحلة من حياتي ومن الصعب تخطي مرحلة التكوين، فهي قد نشأت معي ولم يساعدني الوضع المجتمعي بتخطيها، ففي كل حين هناك من يذكرني بأننا غرباء عن هذه الأرض، وكأننا جئنا من كابل أو اصفهان للعيش في هذه المدينة، لم يكن يفصل المدينة التي ينحدر منها اسلافي عن هذه المدينة سوى ٢٠٠ كم في اعلى تقدير.
- كيف احصل على اجابات تشبع ضميري الذي بدأ يؤلمني؟.

---

١ – كناية للسكان الاصليين في المدينة

٢ – كناية عن الغرباء والفقراء.

(11)

(سارة)

لم أكن أعرف اسمها في بداية الامر، ولكن شهلة أجابتني عن هذا السؤال الذي سألته بشكل عرضي، ودون أن أبدي اي اهتمام به، فيما اذا كان يوجد موظفات او معلمات هنا في المنطقة. قالت أختي؛

- نعم هناك معلمة اسمها سارة من بيت الموسوي وهي زوجة (صاحب المكوى) نزار، يقع بيتها مقابل دارنا، والمعروف عن زوجها صاحب املاك وهو من عوائل المدينة المعروفة، ويحبها جدا، وهي كذلك، ولكن للأسف لم يقسم لهم رب العالمين الذرية، فهي لم تلد له لحد الآن، بالرغم من كثرة المراجعات للأطباء والاخصائيين، والكثير من السادة والعلويات، ولكن عقدتها لم تحل. فقلت لها:

- وما ادراك ان السبب منها، قد يكون هو السبب، قالت :

- ربما ولكن الغالب ان الناس تجعل العلة في المرأة، كونها الحلقة الاضعف.. هذه العبارة جعلتني التفت الى شهلة وانظر لها نظرة اخرى مختلفة، فهي لم تعد تلك الطفلة الدلوعة والمنزعجة والمتذمرة من كل شيء فهي الان صاحبة رأي، وأي رأي، فها هي

تتكلم عن حقوق مهدورة للمرأة، وتنبه اليها بشكل ذكي. ولم اكن اعرف كيف تسنى لها جمع كل تلك المعلومات عنها، فقلت في نفسي :ربما اجتمعن في مجلس تعزية، او هناك شخص مشترك يعرف الطرفين، وبالفعل كانت زميلتها في الاعدادية تربطها علاقة مع بيت (الأووتچي)[1] حيث قررت شهلة معرفة كل شيء عن ست سارة من زميلتها زينب، وبالفعل لم تقصر زينب بذلك.

وأنا لا أعرف سبب اهتمام شهلة بهذه المرأة، ترى هل تكون هي الاخرى وقعت بغرام ست سارة، فمن خلال حديثها عنها كانت شهلة تتكلم بإعجاب شديد عن ست سارة، وكأنما عاشت معها دهراً، والحق يقال اني شعرت بهذه الحالة ايضا.

لم تلتفت سارة اليّ في بادئ الامر، لكنها صارت تبادلني بعض النظرات، وان كانت سريعة، وعن بعد، ولكني شعرت اني قد حظيت باهتمامها بشكل او آخر، فهي اصبحت محور تفكيري واهتمامي، وبالرغم من معرفتي انها متزوجة، ولم تنجب إلا اني لم اتوانَ عن اي شيء ممكن ان يجمعني بهذه المرأة وبأي ثمن، فمنذ اللحظة التي رأيتها صارت هدفا مقدسا في حياتي، يجب الوصول اليه بكل وسيلة، ولكن يجب ان اخطط لهذا الأمر بحذر وروية خشية ان اقع في المحظور وافقدها الى الابد، وانا غير مستعد لفقدانها فحصولي عليها صار غاية ما اريد.

---

١ – صاحب المكوي.

(١٢)

اصدقاء جامعيون

كانت الامور تسير بشكل هادئ وروتين يومي أسعدني بعدم وجود متغيرات حادة يمكنها شلَّ حركتي وتفقدني زمام السيطرة، بل صرت اعيش في بحبوبة من خلال الفائض النقدي الذي وفره لي بيع قطعة الارض، وبعد شراء هذه الدار المتواضعة كان بالإمكان توفير جزء من المبلغ لتحسين حالتنا، وشراء أثاث وملابس لي ولأختي وللوالدة، كان العمل المسائي ينهكني وذهابي المبكر الى الكلية، وكثيراً ماكنت أغفو على المدرج ويوقظني زملائي، كانت الساحة السياسية تشهد متغيرات سريعة وحادة، فهناك البعثيون، والقوميون، والشيوعيون، وكل يغني على ليلاه، اقترب الكثير مني بغية ضمي الى صفوف هذا الحزب او ذاك، لكني لم اكن راغباً بالانتماء الى اي منها، فهذا الانتماء الفكري لم يشكل عندي هاجساً معيناً، بل بالعكس كنت اعتبر هؤلاء المنشغلين بالسياسة من زملائي فارغين، ويعيشون حالة ترف تسمح لهم بذلك، فمن منهم لا يملك أب أو أخوان أكبر منه يعتنون به اذا ما حدث له حادث، بينما أنا من سيعتني بي فها أنا تلك النبتة الصحراوية ليس هناك

من يعتني بي، بل المطلوب مني أن أعتني بشخصين مهمين في حياتي أمي وأختي، ومن منهم لا يملك دار جيدة في مكان مقبول على اقل تقدير، لم يشغلني الوضع السياسي بكل تفاصيله بل كنت ارقب التغيير الذي ربما يحدث عاجلا، لكون المرحلة تعتبر مرحلة متغيرات سريعة وحادة، فالانقلابات العسكرية منذ الاطاحة بالملك صارت تتوالى، وأصبحت السلطة في العراق بيد العسكر يتداولونها وأيهم الاقوى، والناس هنا تبعا للقوي فهم صفقوا للزعيم مثلما صفقوا للملك سابقا وهاهم اليوم يصفقون لعارف وربما غدا يصفقون لغيره، مالي أنا ومال هذه اللعبة السمجة فليأتي من يأتي ولا علاقة لي بهم فأنا لا املك ناقة ولا جملا في هذه المعمعة بل حتى الحمارة وجحشها فقدتهما أثناء الحريق.

مضت السنين وها انا اليوم على اعتاب التخرج والتغيير السياسي حدث وبكل بساطة دون اراقة دماء وهذا هو المهم عندي، ويقال انهم بصدد تخريج قضاة من خلال دورات معينة فصرت ابحث عن هذا الموضوع بشكل هادئ ولا يلفت الانتباه.

تخرجت من كلية الحقوق بمعدل جيد جدا عال وهذه درجة لا تتسنى للكثير فأنا من الاوائل على الكلية، فأرسل العميد بطلبي وهو يسألني عن موافقتي للتعيين معيدا بالكلية، فطلبت منه أن يرشدني الى الطريق الذي يمكنني أن اصبح قاضيا من خلاله، فابتسم الرجل:

اذا اردت ان تكون قاضيا في يوم من الأيام، يجب أن تعمل في المحاكم فترة من الزمن، ويبدو أن الأمور تجري حسب ما تريد، فأنت مؤهل للتعيين في المحاكم العراقية، وهناك ستقضي فترة من الزمن لتتأهل لدرجة قاض، وبالفعل تم تعييني حسب الأصول، وصرت اتدرج في الوظيفة الحكومية وبعد أن نقلت خدماتي من مصنع التعليب لتضاف الى خدمتي القضائية، لاستحق بموجبها ترفيع وعلاوات، أمضيت عدة سنوات حتى تم افتتاح المعهد القضائي، والذي يمنح المتخرج درجة الدبلوم العالي في القانون ويؤهله الى أن يكون قاضياً على أن تكون له مدة خدمة اصغرية في السلك القضائي لا تقل عن ثلاث سنوات او ممارسة مهنة المحاماة.

من سيساعدني في هذه المهمة، تذكرت حينها اساتذتي في كلية القانون، وقررت الذهاب اليهم، وعند سؤالي عن السيد العميد وجدت انه قد تم اختياره لعمادة المعهد القضائي وهنا كانت المفاجأة السارة التي لم اكن اتوقعها.

(١٣)

شهلة

بـدأت ارقـب نضـوج شـهلة بشـكل مسـتمر واحـاول البقـاء علـى تواصــلي معهــا دون ان اتركهــا بعزلــة لأعــرف طريقــة تفكيرهــا واتجاهاتها فهـي الآن صـارت فـي الصـف السـادس الاعـدادي وانـا علـى وشـك التخـرج مـن كليـة الحقـوق، وهـي تطمـح لنيـل اعلـى الدرجات للحصول على الكلية الطبية، كما صرحت لي في بعض الاحيان، وكم كان هذا الحلم يخيفني بقدر ما يسعدني، فهو يخيفني لأنـي سوف أعجز عن تسديد نفقات دراستها، ولكنـي لم اكن قادراً علـى مصـارحتها بهـذه الحقيقـة، حتـى لا تصـطدم بطموحاتهـا التـي كانت تمثل الجانب المشرق في هذه الحياة، فأنا وشهلة يمكننا بناء اسم لهذه العائلـة البائسـة التـي جـاءت مـن الريـف بحثـاً عـن لقمـة العيش بعد نيّلها نصيبا وافراً من الالم والجوع والعوز، هناك حيث ننتمـي، فالمدينـة كانـت لنـا طـوق نجـاة، وفرصـة يمكننـا مـن خلالهـا تأسيس أسرة من جديد، ونؤشر لنا اسما داخل هذه المدينة المغلقة ابوابها بوجوهنا، الحقيقة ليست بوجوهنا فقط انما بوجه كل غريب، قد يمكننـا العـيش بهـا ويسـتقبلنا اهلهـا كزائـرين، ولكـن تبقـى الأبـواب

مؤصدة بوجوهنا كوننا غرباء أو ما يطلق علينا في هذه المدينة الحزينة (لفوّة) او عبارة (مو ولد ولاية)، والحقيقة هذا الشعور يؤرقني دائما، ويجعلني في كثير من الأحيان أتقزز، بل وأحاول تقليص علاقاتي مع المحيط الذي أعيش فيه، وبالفعل أنا كذلك، ولكن كيف كان شعور شهلة بهذا الخصوص، فهي فاتنة في كل شيء ولا يهمها ما يدور حولها من ترهات، فهي بالنتيجة اثبتت تميّزها بالدراسة وكل زميلاتها يحاولن التقرّب اليها من خلال طلب مساعدتها، ولكنها لم تكن على استعداد لاستقبال اي من زميلاتها عدا هناء، وهذه الطالبة كانت من طبقة فقيرة شأنها شأن شهلة، وهي لا تتحرج منها.

- حين سألتها عن سبب عدم استقبال اية زميلة اخرى.

- اخبرتني بكل صراحة فهي لا تريد ان تتعرض للإذلال أمام بقية زميلاتها من بنات الذوات، أمّا هناء فهي تحتاج الى مساعدة حقيقية وبالإمكان أنا وهي أن نشكل ثنائياً متكاملاً لرفد بعضنا البعض في كل الدروس، فهي متميزة في بعض المواد التي قد احتاج منها أن تساعدني فيها وأمّا أنا فأساعدها في كل المواد المتبقية....هكذا كان رد شهلة...فهي تتمتع بعقل منظم، وتسعى خلف هدف واضح، وتبذل كل ما بقدرتها للحصول عليه، فمن غير الممكن ان اكون سببا في تحطيم هذا الحلم او لنقل الهدف.

كنت اسألها بشكل غير مباشر عن ست سارة، كانت تعرف

الكثير من التفاصيل الدقيقة عن حياتها، استغرب منها هذا الشغف الذي يبدو واضحا في حديثها عن ست سارة،

قلت لها:

- ما سر اهتمامكِ بهذه المرأة، ارى انكِ مهتمة بها جداً.

- لا بل قل ما هو سر اعجابكِ بها، واسترسلت: تعرف اخي (كريم) كم انا معجبة بهذه المرأة وأحسها قريبة الى نفسي، وجعلت منها مثلي الاعلى، وكم احاول الاقتداء بها، وتكون لي مثل شخصيتها، فهي تمتلك من قوة الشخصية والهيبة مالم تمتلكه امرأة أخرى، وبالمناسبة، دائما تقول لي هناء انها تشبهني او بالأحرى انا اشبهها الى حد كبير.

- هل كلمتها يوما، كيف هو صوتها.؟

- نعم عند الصباح عندما أصادفها أُلقي التحية وهي تجيبني بصوتها الانثوي الرخيم والعذب جدا صباح الأنوار ماماتي مع العلم انها ليست كبيرة جدا، يبدو انها انتبهت ايضا للشبه الكبير بيننا وأحبت أن اكون ابنتها.

- حسنا انها امرأة رائعة تحمل كل المواصفات التي يبحث عنها الرجل في المرأة، وهنيئا لزوجها.

- يبدو انك أنت الآخر معجب بها اخي العزيز.

- لا اخفيك شهلة، فهي لفتت انتباهي منذ أول يوم فهي تشبه عمتي حورية الى حد كبير، ولا أعرف هل محبتي وشوقي الى

عمتي دفعني الى هذا الاعجاب أم إنه شيء آخر !!!.لا أعرف شهلة، فأنا ارتبك عندما أراها ولم أعد أريد ان اتكلم عنها.

يومها عرفت شهلة مقدار ما أحمله من ود لهذه الانسانة، وبدوت أمامها كأني شاب مراهق، وخشيت أن تهتز صورتي أمامها، فهي لا تملك سواي، وأنا مَثَلُها الأعلى في حياتها البائسة هذه، وهي تحاول ان تبني مستقبلها اسوة بي، وتستمد عزيمتها، واصرارها مني، هنا اتخذت قراراً سريعاً وحاسماً، يجب أن اخفي كل شيء عن شهلة فانا لا اريد ان اكون مثلا سيئا، يبني سعادته على تعاسة غيره، عجبا ولكن هذا لم يعد من اخلاقي، فأنا أريد أن أكون أنا، ولا يهم ما يحدث، لقد اخذت مني المدينة الكثير ويجب استعادة ما اخذته مني هذه المدينة او غيرها، وليعش التعاسة من يعيشها فلا عزاء له عندي، انما انا اعطيت كل ما عندي، وحان وقت ان اخذ كل ما تقع عليه يدي، وكل شيء اريده، وهذه المرأة هي خلاصة النساء التي ارغب بالاقتران بها. كانت هذه الافكار تداهمني بكثرة، ولكن هناك ما زرعه والدي في داخلي لا يمكنني تجاهله.

(١٤)

مذكرات (المچاري)

لم استطع مفارقة هذه المذكرات فترة طويلة، رغم مشاغلي واهتماماتي، فهي قد وقعت في نفسي، وأثرت بي كثيرا، فكأنما عرفت صاحبها، وهو اليوم يتمتع بمركز مرموق في المدينة ويشار اليه بالبنان، ولكن فاجأني ان يكون هذا الشخص قد انطلق من القاع ليصل الى هذه المرتبة المتقدمة، ولا أخفي اني تضايقت جدا من تسمية هذه المذكرات بيوميات (مچاري) لأني وضعت الاسم نسبة الى مهنة صاحب هذه المذكرات منذ البداية دون الالتفات الى قدرة هذا الرجل بالتعبير والكتابة وسرد الاحداث، فهي تشير الى مستوى ثقافي عال، وامكانية أدبية كبيرة، كيف لم انتبه لهذا وابقيت على تسميتي للمذكرات، فهي لا تستحق حسب قناعتي هذه التسمية، ولكن دعني استمر، لأرى ما يمكن ان يصل اليه هذا الانسان من مكانة اجتماعية، وطريقة وصوله اليها، فأنا تقريبا عرفت المركز الاجتماعي الذي وصل اليه فأسمه المكتوب في المذكرات يدلل عليه بشكل واضح، ولكن الخافي هو كيف وصل الى هذا المركز.

ففي ذكرياته عن الكلية والدراسة يقول كريم في مذكراته:

كانت مرحلة الدراسة الجامعية كأنها حلم مضى ولم استطع أن أؤشر او أترك فيها أثراً معينا فنوع العلاقات المتميزة التي كان يتمتع بها زملائي واهتماماتهم لم تكن تعنيني بشيء، وهذه اخفاقة كبيرة لم اكن احسبها، فأنا بذلك فقدت معينا كبيرا لي في حياتي المستقبلية، لولا اخلاص وتذكر البعض لي، كوني كنت متميزا في الدراسة. ولكن من ناحية اخرى، فانا لم يسعنِ الوقت للعلاقات الاجتماعية والصداقات التي تتطلب مني عقد لقاءات خارج الكلية، فالوقت ضيق جداً وبمجرد ان انهي محاضراتي، والتي قد اتغيب عن بعضها اذا ما كان موعدها متأخراً، حتى الحق بعملي في معمل التعليب الدوام المسائي، كنت اعاني من الارهاق البدني، ولكن فكريا كنت اتقدم شيئا فشيئا، فالدراسة الجامعية فتحت الابواب المعرفية امامي، وماكنت اسمعه من زملائي من احاديث عابرة اثناء الاستراحة بين المحاضرات كان يشد انتباهي، فهناك حراك سياسي ونضج وطني لدى الكثير من زملائي، وأما البعض الاخر فمن الذين يفخرون بأنسابهم وانتماءاتهم القبلية والعائلية، كنت انبهر بأسماء البعض عندما يضيف لها اسم عائلته، وهي أسماء بمجرد ذكرها تفتح لهم الأبواب للولوج الى عالم السياسة والقضاء، أما أنا من اكون وسط هذه الاسماء، ولم يخلف لي الوالد رحمه الله سوى حمارة اولدها حمار شهيدة جحشاً، والتهمته النيران، ولم يبق لي من

ذكراهم سوى لقب (مچاري)، كثيراً ما كنت أحاول التفكير في رسم طريقي المستقبلي وسط هذه الأسماء اللامعة، كيف لم يتسن لي الاستفادة من هذه العلاقات، كيف غفلت عن هذه الاسماء وتجاهلتها، ولكني لم اتجاهلها بل خفت التقرب منها حتى لا انكشف واتعرى امامهم، وما أنا سوى (مچاري) خدمته الظروف ليصل الى هذه الكلية، ويجلس معهم على نفس المقاعد ويشاركهم بنفس المستقبل.

ولكن الوقت مازال مبكراً لأمد جسور التواصل معهم وأحصل على خدماتهم التي لا استغني عنها بالتعيين والتنقلات والترقيات، فهؤلاء القوم بيدهم كل شيء مهما تغير نظام الحكم وتبدلت الحكومات، سأبدأ بحسام العبيدي، ووالده الذي تم تعيينه سفيراً قبل أيام في احدى الدول ويقينا هو من المقربين من القيادة السياسية، وهكذا حظيت بالتواصل مع معظم أصدقاء الفصل الدراسي الذين تم تعيينهم في مفاصل الدولة المختلفة، وكنت اندهش لسعة علاقاتهم، وامكانياتهم في الحصول على ما يرغبون به، والأكثر من هذا وذاك استجابتهم لطلباتي دون كلل او ملل، فهم لا يتذمرون بل ينجزون ما أريد بكل رحابة صدر، وأريحية ودون تعب، فالتلفون كان وسيلتهم في انجاز كل شيء، ولا يحتاج احدهم ان يكلف نفسه مشقة الذهاب الى الشخص المسؤول، وبنفس الوقت الشخص المسؤول كان يهتم بطلباتهم بشكل غير متوقع، في هذه المرحلة

اكتشفت عملية التخادم التي تتم في المجتمع المخملي، وكان لابد لي ان اتكيف مع هذه الحالة واكون مستعدا لتلبية رغباتهم في حالة طلبوا مني انجاز شيء.

ماذا لو لم تكن سارة قد دخلت حياتي، كنت اخترت احدى الطالبات اللاتي كن يتقربن اليَّ للحصول على زوج المستقبل في نهاية الدراسة، كانت تلك الأسماء تمثل الثقل السياسي في البلد والتقرب من احداهن يفتح لي الابواب بكل سهولة، ولكن ماذا افعل بهذا القلب الذي لم يعد يرى سوى سارة في هذا الكون الرحب. كنت ابتسم لهن وادير الحديث بشكل ودي عند بدء اية محادثة، وأجعل الاجابات مقتضبة، اشارة لنهاية الحديث، عجزت نهلة عن الاستمرار معي بالحديث رغم كل محاولاتها المستميتة للتقرب مني بشكل خاص، كنت اتجاهل تلك العواطف الجياشة، فهي لا تهمني من قريب أو بعيد، فالقلب فيه من يسكنه، ولامجال للحديث عن اية عواطف مع غير سارة.

(١٥)

المعهد القضائي

– يبدو انك قد اخذت خبراً بهذه المعلومة. فقد تأسس المعهد القضائي الذي سيختصر لك الطريق.

– أجل دكتور.

– ولكني لم اعرف ما هو الطريق بالضبط وكلما حاولت سؤالك، كنت أتردد خشية أن اسبب لك الاحراج.

– ولماذا الاحراج يا ولدي فأنت طالب مجد ومعدلك يؤهلك تماما لدخول هذا المعهد، واذا رغبت رشحناك للدراسة فيه، فنحن من طلبت الينا القيادة السياسية اليوم ترشيح من نجده مناسبا على ان يكون موالٍ للدولة.

– بالتأكيد انا موالٍ للدولة ولا يوجد لدي اي نشاط سياسي معاد لها

– نعم نعرف ذلك.

– اذاً انتظر خبراً مني وسأبلغك بموعد الالتحاق بالمعهد.

– شكرا لك دكتور لاهتمامك، وسأبقى ممتنا لك دائما على ما بذلته معي.

– لا شكر على واجب فأنتم ابناؤنا ونحن نفخر بكم.

هكذا غادرت مكتب العميد وأنا مليء بالسعادة والحبور، فالأيام القادمة ستبدأ رحلة النجاح، ولكن هناك امور يجب ترتيبها اولاً، فأنا اعتبر فقيراً ثقافيا بالنسبة لأصدقائي المقربين، أمثال سيد فائز الحسيني، ورزاق الجشعمي. فأمثال هؤلاء الاشخاص اهتموا جدا بالجانب الثقافي فهم أبناء عوائل من الطبقة الغنية، ولا يحتاج أحدهم للبحث عن لقمة العيش فمن الطبيعي جداً أن يتوفر لهم وقت للقراءة والمطالعة، عكسي تماما نادراً ما أجد الوقت لإنجاز بعض المهام المنزلية، فوقتي موزع بين العمل والدراسة، وكنت الاحظ نظرات الاشفاق التي كانت تغمرني بها والدتي وشقيقتي، ومع ذلك يجب ان ابدأ الآن فالوقت أزف للتغيير، فكل شيء في البلد سائر نحو التغيير.

لم يكن المعهد القضائي سهل الدراسة، بل كان يتطلب جهداً كبيراً ومتابعة، والأهم من ذلك طُلِبَ مني الانتماء للحزب فالدراسة في هذا المعهد مغلقة للحزبيين، ولم أجد ضيراً في الانتماء وكنت بدرجة مؤيد تمت ترقيتي الى نصير، وكانت الاجتماعات تتم في التنظيمات المهنية بعيداً عن التنظيمات العامة أو ما يسمى بالفرقية لتجنب القضاة الخضوع للتأثيرات الحزبية الناتجة من خلال العلاقات الحزبية، وكان هذا مريحاً بالنسبة لي، لكي لا يعرف أحد انتمائي، وماهي درجتي الحزبية. وكان المسؤول الحزبي على درجة

عالية من الثقافة والاطلاع تم اختياره بعناية ليكون مسؤولا عن قضاة المستقبل فهو حاصل على شهادة الدكتوراه في القانون الدولي من دولة اجنبية ومتحدث لبق اي بمعنى هو نفس اختصاصنا ويمكننا التواصل معه فهو على درجة عالية من التواضع وذو وجه بشوش يساعدنا على التقرب منه والحقيقة كان لنا خير معين.

استمر الحال في المعهد القضائي ومضى الوقت بطيئا بالنسبة لي فأنا كنت أنتظر بفارغ الصبر يوم التخرج والتعيين كي اصبح قاضيا وامارس مهنة القضاء التي احببتها بل تمنيتها، فهم يطلقون على القاضي كلمة (حاكم) ليصبح بيتي هو بيت الحاكم واختي اخت الحاكم.

ايام الدراسة في المعهد القضائي كانت استثنائية، ففي هذا المعهد كان يتم اعداد قضاة المستقبل، تعامل الاساتذة كان على درجة عالية من الاحترام، والتدريس كان على درجة ممتازة من الاحترافية، وكنا نُطالَب ببحوث كثيرة اخذت مني الوقت الكثير، الأيام تمضي ببطء بالنسبة لي، فالمعاناة لم تعد مادية بحتة، فالأمور المالية قد تجاوزتها بحمد الله، ولكن المتغيرات الجوية والإنشغال الدائم عن سارة كان يؤرقني، فأنا موزع بين اهتمامي بدراستي التي طالما حلمت بها، وبين سارة حلمي الأول.

بعد مرور شهور الدراسة، حان وقت التخرج، وصدرت الأوامر بتعيين القضاة ومن بينهم أنا تم تعيني قاضياً في محكمة بداءة

السماوة بعيداً عن عائلتي وعن سارة التي سعيت بكل ما عندي من قوة لأكون لائقا بها فأنا الآن قاضي، ولكن بعيداً عن الأهل وملاعب الصبا، كيف سيتسنى لي التواصل مع سارة التي وضعتها نصب عينيّ، كيف لي أن أتابع تحركاتها التي ملأت حياتي بكل انواع البهجة لمجرد النظر اليها، فهي تتحفني بابتسامة بين الفينة والأخرى، وهذه بحد ذاتها تمنحني من الطاقة والصبر الكثير.

مضت سنة على تعييني في السماوة ولكن الأمور لم تعد تطاق فالبعد عن سارة عذاب، ويجب ان أتابع حياة شقيقتي التي تم قبولها في كلية الطب جامعة بغداد وهي على وشك التخرج، حيث أن معدلها كان متميزاً ويؤهلها بكل اريحية للدخول للكلية الطبية، أما زميلتها هناء فتم قبولها في كلية الهندسة، وللخلاص من هذا الوضع اتصلت بحسام العبيدي الذي كان يشغل منصبا اداريا مهما في وزارة العدل حول نقلي الى مدينتي، لم يتأخر الأمر الوزاري طويلاً، حيث تم نقلي بسرعة، لأجد أن الأمور قد جاءت وفق ما اشتهي، فزوج سارة يريد الزواج رغبة بالأولاد، وسارة ترفض هذا المشروع لأنها متأكدة إن الخلل ليس فيها، فهي أجرت فحوصات وتحليلات بعيداً عن زوجها للتأكد من خلوها من أي عيب، وهذه الفرصة الذهبية لها للتخلص من زوج عاقر فهو الذي بدأ وكما يقال (على نفسها جنت براقش)، طلبت منه الطلاق، وفي بداية الأمر مانع كثيراً حول الموضوع، فجمالها لا يمكن ان يعوض، ولا يمكنه

الحصـول علـى هكـذا زوجـة فـي المسـتقبل، ولكـن أمـام رغبتـه بالحصـول علـى وريـث ورغبتهـا واصـرارها علـى الطـلاق، خضـع لإرادتها، فكان الطلاق بمثابة اطلاق سراحي من سجن مظلم كنت قد حبست نفسي فيه، وهنا تجرأت على محادثتها لأول مرة بعد انقضاء أشهر العدة.

ثلاثة أشهر مضت دون أن أراها صعبة وبطيئة، كانت طلعتها بعد انقضاء ثلاثة اشهر وعشرة أيام توحي بأنها واجهت معاناة كبيرة في تلك العزلة التي أثّرت على ملامحها وبان الذبول عليها، الأمر لا يخلو من مشاكل واجهتها أثناء تلك الفترة فتأنيب الأهل لها واللوم الذي واجهته كان مؤثرا، فهي لن تشأ أن تشرك أحداً في معاناتها ولم تفصح عما كان يدور بينها وبين طليقها. وما أن لمحتها بعد خروجها الأول سعيت لأكلمها بكل صراحة، وأعلن لها عن رغبتي بالزواج منها، مهما كلف الأمر. أطرقت كثيراً وقالت امهلني بعض الوقت لأرتب الأمور فالزواج في هذا الطرف سينعكس سلبا على سمعتي كامرأة، حيث سيقال انها تطلقت لتلحق بحبيبها، وأنت تعلم اننا لم نتكلم قبل هذا اليوم، حتى نجب الغيبة عنا يجب ان نتصرف بحكمة اكثر يا سيدي القاضي.

كانت هذه الكلمات هي طوق النجاة لمشاعري والقلق الذي كان ينتابني وتأكدت انها تبادلني نفس الشعور هذا من جهة ومن جهة اخرى انها لن ولم تذهب الى اخر، فمن خلال حديثها عرفت بشكل

لا يقبل الشك انها تكن لي من المشاعر مثلما انا. وتأكدت ان هذه المرأة على قدر عال من الخلق وهي تصلح ان تكون زوجة رائعة.

(١٦)

سارة

لم تكن سارة من النوع الذي يفرض عليه ارادة او تخضع لرغبات اي شخص فهي معتدة بشخصيتها، وقد اكتسبت ذلك من شخصية والدها السيد برير، فقد كان وجها من وجوه المدينة، وله حظوة عند خيارها، وذا رأي مسموع، وصاحب مكتبة بيتية قلّ نظيرها، فهذه المرأة التي تربت في هذه الاجواء من الصعب جدا ترويضها واخضاعها لأي رغبة لا توافق تطلعاتها، فهي منذ زمن بعيد تراقبني، وتود ان تكلمني ولكن الحياء والمركز الاجتماعي واحترامها لأسرتها وبالأخص والدها كان من الأولويات التي تراعيها، فنحن في مدينة صغيرة، وكل شيء محسوب علينا – هكذا كانت تقول لي – ارجوك استاذ كريم دعنا نرتب الأمور بعيداً عن التسرع والعجلة، فنحن لسنا مراهقين فأنت قاض، وأنا موظفة في الدولة بل معلمة في مدرسة بنات، وهذا شيء يستوجب العناية، ولنا من يراقب تصرفاتنا، فلنتصرف بحذر دون أن نقع فريسة للأقاويل التي ستعقد مشهد الزواج، فكما أنت راغب بالارتباط بي أنا كذلك، ولا اكتمك اني اكنّ لك من المشاعر الكثير، فأرجو ان تحافظ على هذه العلاقة بعيدا

عن اعين الفضوليين، لأنهم سيحيكون القصص والروايات على علاقتنا.

رأيت في كلامها الكثير من المنطق والعقل الراجح، وهذا ما زاد في رغبتي بالارتباط بها مهما كلف الأمر، ولكن كيف السبيل الى ذلك؟ فالسيد برير سينبش في الدفاتر القديمة وسيظهر كل شيء مخفي عني ولم يشفع لي انني صرت قاضيا، فهؤلاء القوم يبحثون عن نسب معين وعائلة موازية لعائلاتهم، ترى هل تم احراق الماضي مع الصرائف التي تم احراقها. الحل الوحيد هو اصدقاء الدراسة السيد فائز الحسيني هو من سيزكيني عند السيد برير وكذلك الصديق رزاق الجشعمي.

عملية الخطوبة يجب ان تتم بشكل عفوي دون قصدية واضحة وبعد مرور فترة مناسبة اصغريتها عام واحد وهذه فترة جدا طويلة بالنسبة لي، وحتى ان كلفت السيد فائز وبقية اصدقائي يجب ان يكون التكليف عابرا دون الحاح حتى يأتي طلب الزواج عفويا.

مضى العام وأنا ارقب بحذر حديثي مع سارة عن بعد وأغتنم بعض الفرص للتقرب منها حتى لا احرجها امام عائلتها، وذهبت الى السيد فائز وبعض الأصدقاء القدامى وطلبت اليهم خطبة سارة بنت السيد برير لي، فرحبوا بهذه الفكرة وخصوصاً بعد أن عرفوا انها مطلقة ولم تنجب، فاعتقدوا انهم يجبرون خاطرها، وستكون هذه الخدمة لها وليست لي، هكذا سارت الأمور وتم اقناع السيد برير

من خلال هذا المنطق، وبهذا أغلقوا كل اعتراضات السيد برير التي كان قد طرحها، (فالعلوية)[1] لا تنجب وهي مطلقة وبقاؤها هكذا ربما يسبب الكثير من المشاكل لها ولكم، ومن الأفضل أن تتزوج هذا الشاب فهو غير متزوج وليس لديه اي ارتباطات عائلية سوى أم ربما ستودع خلال القادم من الأيام وأخت تدرس الطب في بغداد ومصيرها للزواج، ويبقى الرجل وحيداً مع زوجته التي لا تنجب، علاوة على انه قاض ومركز اجتماعي مرموق، فالتغيير الذي حدث بعد ١٩٦٨ قد رفع الكثير من الأشخاص الى مستوى أفضل، وهذا يحدث مع كل تغيير سياسي، فهو لم يكن بمعزل عن المتغيرات الاجتماعية والاقتصادية، من خلال تولي ابناء الطبقات المسحوقة المناصب المهمة في الدولة، ويصبح بيدهم مصدر القرار، الأمر الذي يجعل ابناء الطبقات العليا في العهد الماضي يذعنوا لهذا التغيير ويتعاملوا معه بشكل افضل.

لقد تمت الخطبة بشكل سلس، وتحققت كل رغباتي التي كنت أحسبها لم ولن تحدث، فالمستحيل حدث وها هي سارة ستدخل داري كزوجة لطالما حلمت بها.

---

١ – لقب يطلق على النساء اللاتي يرجع نسبهن الى علي بن ابي طالب.

(IV)

شهيدة

كانت القضايا التي تعرض عليّ في البداءة كثيرة، وخصوصاً نزاعات الملكية، وأنا أتصفح بعض القضايا لفت انتباهي اسم المشتكية في احدى القضايا، كان هذا الاسم يمثل لي تاريخاً كبيراً من المتعة والجمال، كانت المشتكية هي شهيدة حيث أقامت الدعوى على رجل أراد الاستيلاء على القطعة التي كانت تسكن بها، وهو مستمر بإنجاز معاملة التمليك، ولكن هناك من أبلغ شهيدة بهذا الأمر، فسارعت للحضور الى المدينة للوصول الى تسوية مع هذا الرجل الذي رفض كل انواع الحلول، وأصر على الاستيلاء على الارض التي تبلغ مساحتها ٢٥٠ متراً مربعاً دون وجه حق، فهناك أسماء شهود تم ادراجهم من قبل المشتكية وكان اسمي من ضمن هذه الأسماء، الأمر الذي أحرجني، وكان هناك اسماء بعض الشهود من الجيران القدامى، طلبت من الحاجب ان ينادي على المشتكية، دخلت الغرفة وهي منكرة لي في بداية الأمر، لم تكن ترتدي من الملابس ما يدفئ جسدها الذي بدا نحيلاً بل هزيلاً وقد بانت على وجهها بعض التجاعيد، ربما تكون من حالة الهزال التي

أصابتها بعد التحاقها بأهلها لقد كان واضحاً على وجهها مدى قسوة الزمن فذبول الشفاه وتشققها وظهور الهالات السوداء تحت جفونها كانت علامات واضحة على سوء التغذية والعوز الذي تمر به تلك المرأة.

هي لم ولن تتوقع ان اكون انا القاضي، فكل ما ترغب به هو العثور عليَّ لأكون شاهدا على ملكيتها للأرض، عندما حدقت بي جيدا وفي نظراتها تساؤل كبير شعرت ان عقارب الساعة ارتدت الى الوراء:

- هل يعقل هذا كأني أمام كريم؟ نعم إنه هو.
- ما بالك شهيدة هل نسيت من أنا أم ماذا؟
- كيف لي أن انسى تلك الأيام التي لم يزل طعمها بين لهاتي ولساني وكياني. ولكن المفاجأة عقدت لساني فأنا لم أتوقع أن تكون أنت القاضي الذي سيجلب لي حقي، اعذرني. كان الحديث نابعا من القلب ويرسل برسائل شوق مغلفة بعتاب من أحبت بكل جوانحها.
- طلبتُ من شهيدة شطب اسمي من قائمة الشهود، فاستجابت لهذا الطلب، ولكنها تساءلت عن السبب.
- فقلت لها أنا القاضي ولا يمكن أن أكون شاهداً ستؤخذ القضية الى قاض آخر ولم أتمكن من مساعدتك، وهدأت من روعها وطلبت منها انكار معرفتها بي حتى لا يطعن بقرار الحكم، وهكذا تم

استبدال عريضة الشكوى ورفع اسمي من قائمة الشهود، تمكنت من خلال هذه العملية من استدعاء كافة الشهود الذين ذكرتهم شهيدة في عريضة الشكوى لمعرفتي بهم وبذلك ابطلت معاملة التمليك التي بدأها هذا الشخص واعادة الأرض الى شهيدة لتعينها على متطلباتها فالأرض قد ارتفع ثمنها اضعافا مضاعفة وصارت تساوي ثروة.

طلبت من شهيدة أن تزورنا في الدار لتسلّم على والدتي فهي تسأل عنهم باستمرار، ولتحدثنا عما جرى معهم خلال عودتهم الى مدينتهم الأصلية، وبالفعل زارتنا شهيدة في نفس اليوم لرؤية الوالدة والسؤال عنها، وجلسنا بعد الغداء نتحدث وتحكي لنا اخبارها منذ رحيلهم، وما فعلت بهم الدنيا، فكانت مطمعا لكل ذي نفس مريضة وحالة والدتها المترديه، لا الأعمام ولا الأخوال انصفوها، لعل هذه الاموال التي ستحصل عليها من بيع الارض ستساعدها على العيش بشكل افضل، اقترحت عليها ان تبيع نصف الارض وتبني بثمنها بيتا متواضعا ودكان تعتاش منه بقية حياتها بدلا من حياتها هناك، حيث ستنفق هذه الأموال بشكل غير مجدي، راقت لها الفكرة وبدأت تشتغل عليها، وبعد أن تم تمليكها الارض طبعا وبمساعدتي لدى الدوائر البلدية تم انجاز المعاملة بسرعة، وفعلا نفذت الفكرة واحتفظت ب ١٠٠ متر وباعت ١٥٠ متر فكان المبلغ جيدا ويكفي لإنجاز مشاريعها، كانت عند بنائها الدار تأتي للمبيت عندنا وتخدم والدتي التي اقعدها الكبر، وانشغال شهلة عنها بالدراسة حيث تسكن

بغداد، لم يحدث أي شيء بيننا خلال فترة تواجدها معنا، ولم نتقرب من بعضنا البعض، بل تعاملنا كأننا اخوة في دار واحدة، فأنا اشفقت عليها وعلى المعاناة التي تعرضت لها خلال رحلتها الاخيرة، ولم ارد ان اكلفها اكثر من ذلك، فصرت لها الأخ المحامي لها والمدافع عنها، والمشرف على أمورها عرفاناً مني على ما قدمته لي في سالف الايام من متعة لايزال طعمها بين جوانحي، أكملت شهيدة مشروعها السكني والتجاري، وكلفت بعض تجار الجملة من معارفي بتزويدها بالبضائع على التصريف بكفالتي، وهكذا استقرت حالة شهيدة وولدها وامها.

(١٨)

شهلة

بعد امتحانات البكلوريا وحصولها على معدل يؤهلها لدخول كلية الطب جامعة بغداد، كانت شهلة سعيدة جدا وكنت يومها غير قادر على الايفاء بمتطلباتها، ولكني استجمعت كل قواي واستلفت بعض المال من الاصدقاء لشراء بعض المتطلبات الدراسية، وتمّ اسكانها في القسم الداخلي، كانت شهلة من أكثر الطالبات المتميزات في الكلية ويشار اليها بالبنان ففي كل زيارة لها عندما كانت تتأخر عن المجيء بموعدها لسبب ما، كنت الاحظ مدى اهتمام زميلاتها بها واحترامهن لها، فهي مهابة الجانب ولها سطوة كبيرة على قلوبهن، حدثتني احدى زميلاتها بشكل عرضي عن مدى اهتمام الاساتذة بها وخصوصا دكتور (محمود) الذي يدرسنا مادة التشريح، وعندما كنت اجلس مع شهلة كانت تحدثني دائما عن هذا الاستاذ واهتمامه بها، وهي بدورها تحترمه وتحبه، كما انها تهرع اليه في كل مشكلة تصادفها، أو أية مادة تتعثر بها لتحصل منه على الشرح الوافي، أنهت شهلة فترة الاقامة وقرى وأرياف سيكون العمر قد فاتها فهي قررت ان تدرس الاختصاص لتحصل على البورد، لم اكن ممانعا

في تلبية كل طموحاتها لثقتي برجاحة عقلها، وقدرتها على ضبط الامور، ولا أعرف كيف تسنى لها الحصول على هذه القدرات والتراكم المعرفي والمعلومات العامة، التي كانت تفوقني بها بكثير، فهي لديها من كل شيء معلومة، وعن كل موضوع وجهة نظر خاصة بها، فهي تفوقني بهذا الجانب بأشواط، لم تكن شهلة تتوانى في الحصول على اية معلومة تستفيد منها في حياتها العامة والعملية، فهي اشبه بخلية نحل، وكل شيء بها يذكرني بعمتي حورية ونشاطها الدؤوب للحصول على المال لأعالتنا آنذاك.

في جلسة خاصة معها سألتها عن هذا المدعو دكتور محمود لأستشف مدى اهتمامها به، ومدى تعلقها به، فهي لم تكتف بذكره مرة واحدة، فخلال جلستنا الواحدة يرد اسمه اكثر من عشرين مرة ففي كل موضوع هناك دكتور محمود، فقررت ان ارى هذا المحمود لأعرف مدى صلاحيته لشهلة.

خلال احدى الزيارات شاءت الصدف ان يمر الدكتور محمود بينما كنت اتحدث مع شهلة، فنادته:

- دكتور، فالتفت اليها باهتمام بالغ.

- فقدمتني له: شقيقي القاضي كريم، وهذا الدكتور محمود، فاجأني صغر سنّه وحيويته ووسامته فهو شخص انيق ووسيم يميل للبياض، واثار الترف ظاهرة عليه بشكل واضح ويبدو انه من عائلة ثريّة، هكذا كان انطباعي الأولي عنه، وفعلا كان حدسي بمحله،

وعرفت خلال هذا اللقاء ان الاعجاب متبادل بين شهلة والدكتور محمود، ولكن ضمن حدود الدراسة والآداب العامة، فهو حريص على مكانته العلمية ووظيفته كأستاذ في الكلية الطبية وكطبيب. وهذا يبعث على الاطمئنان، فتوقعت ان يكون لنا شأن مع هذا المحمود وهذا ما حدث فعلا بعد عدة سنوات.

(١٩)

الزفاف

فرحت شهلة بخبر خطوبتي حين علمتْ مني في آخر زيارة لها في الكلية، فهي لم تعد تحضر للبيت إلا في مناسبات معينة، حيث أبلغتها بموعد الزفاف، والذي سيكون بعد استكمال التحضيرات، وأبلغتها أيضا اننا سننتقل الى بيتنا الجديد في حي الحسين، الذي اشتريته مؤخراً، وبعت هذه الدار الصغيرة، ليكون السكن لائقا بالعزيزة سارة، وسأشرف على تأثيثه بأثاث لائق بها، فالستائر وغرفة الاستقبال تم تأثيثها وكذلك غرفة الطعام والسجاد والمطبخ بكل تفاصيله، وكانت سارة حاضرة في كل شيء ونشتري ما يوافق ذوقها، والحق يقال ان ذوقها كان رفيع المستوى، بالرغم من بساطة الاشياء وعدم اهتمامها بالبهرجة، إلا انها اختارت الاشياء الأكثر اناقة وملائمة بعضها مع البعض الآخر، كانت سارة تراعي هذه التفاصيل الدقيقة بفرح وسعادة غامرة، وكأنما تتزوج لأول مرة وكنت سعيدا جدا بانشراحها فهي اشبه بفراشة في حديقة غناء تنتقل من زهرة الى اخرى.

هي من أشرفت على كل شيء في الدار الجديدة، انظر اليها

بشغف عندما تنزع عنها العباءة، خصلات شعرها الذهبي تغطي جزء من فتحة صدرها الناهد، نفور نهديها يثير فيَّ كل ذكورتي التي غادرتني منذ زمن طويل، حين افترقت عني شهيدة، فستانها المصنوع من الكشمير الابيض وعليه نقاط سوداء يضيق عند خصرها ويصل الى فوق الركبة، ويبرز تحدب الردفين وينتهي بسيقانها المرمرية، كنت أرقب كل حركة تقوم بها فتلوح لي من خلالها بعض التفاصيل التي يتكون منها جسدها، يسرقني حلمي بعيدا حيث أصل الى اليوم المنشود وأستعرض تفاصيل ذلك اليوم وكيف سيمضي، هل سأتمكن من ترويض هذه المهرة.

لقد استشعرت سعادتها الغامرة وحلمها في بدء حياة جديدة تخلو من الرتابة والجفاف، كنا ومازلنا نتواصل كعاشقين يتعرفان الى بعضهما حديثا، نتحدث في كل المواضيع نتشارك في كل افكارنا، لم تعكر صفوها بعض الحالات التي طرأت على حياتنا، شأننا شأن أي أسرة اخرى، وغالبا ما تكون هذه المشاكل هي ملح الحياة حيث تنتهي بالتراضي وبعض القبلات، وسهرة ممتعة نجدد بها شوقنا الذي تسببه متاعب الحياة وظروف العمل.

اقترب موعد الزفاف وكان لابدّ أن تحضر شهلة هذا الزفاف التي كانت تتمناه فهي تعشق سارة لا اراديا، كانت ترى فيها مستقبلها، وشخصيتها التي صنعتها، وانوثتها المتدفقة، وشيء اخر لم تعرف كنهه.

كان يوم الخميس المصادف العاشر من ذي الحجة أول أيام عيد الاضحى المبارك هو موعد زفافنا في ذلك العام الهجري الذي عجزت ان احفظه، فأنا لم احفظ من التاريخ الهجري سوى مناسبات قليلة وهي عاشوراء والعيدين ومن ضمنهن يوم زواجي، لم اكن اختار غير ايام العطل الرسمية الكبيرة لأضمن حضور شهلة، وفعلا حضرت شهلة في الليلة التي سبقت الزفاف، واختارت غرفتها بجانب غرفة امها، وفرحت عندما رأت البيت الجديد واناقة المفروشات وجمال التنظيم، وكأنما أشرف عليه مهندس ديكور، تنقلت شهلة بالبيت وهي تبدي اعجابها بالفرش وتسألني عما حدث وكيف آلت اليه الأمور الى هذا الحد، وكيف استطعت أن اقنع والدها، والى الكثير من الاسئلة، فهي كانت غائبة عنّا طوال سنوات حتى عند مجيئها في العطل الرسمية، وفي عطلة نهاية العام، ايضا كانت تنشغل بالمطالعة وشراء المصادر العلمية لتزيد من ثقافتها الطبية والعامة، فهي حريصة على النهوض بمستواها العلمي والثقافي لأعلى حد، لتكون بمستوى يؤهلها لتسنم مناصب مستقبلية جيدة.

كان صباح العيد فرحة كبيرة للعائلة بشكل عام، فهي اول حادثة سعيدة تدخل على هذه الاسرة البائسة التي لم تتسلل لها خيوط السعادة منذ نشأت والى هذا اليوم، وكانت بالنسبة لي سعادة لا توصف ان تجمعني الأقدار مع سارة تحت سقف واحد، فهي امنية

لم اتوقع تحقيقها للأسباب العاطفية التي تربطني بعمتي حوري.

– وهي شبيهتها – فقط، وانما هي مصلحة لدخول المجتمع المخملي من اوسع ابوابه، لأكون في النهاية (ابن ولاية) هذه العقدة التي يجب ان أحلّها، فأنا في بغداد لم أشعر بهذه الغربة كما شعرت بها في هذه المدينة.

يبدو أنني كنت في حالة تحدي لألج من خلال هذه الأبواب المغلقة بوجوهنا في هذا المجتمع، فأنا انتظر منذ عقود طويلة أمام هذا الباب الموصد بإحكام لأحقق بعض طموحاتي التي يعتبرها البعض غير مشروعة، فهي لم تكن يوماً ما خارج نطاق الأخلاق والأدب والدين، ولكنها بالتأكيد خارج حدود الانتماء العرقي، فأنا وكما كان والدي يعبر عن نفسه (معرّب)[1] لم يشترك في نسبي أي عنصر غير العربي والعراقي تحديداً، أو هكذا كنت أعتقد، فهذا الخليط الموجود في هذه المدينة والتزاوج بين الأعراق المختلفة أورثها نمط معين من الثقافة غير معروفة عندنا في مدننا التي لم يغير ملامحها أي اختلاط من هذا النوع، يبدو أننا أيضا كنا نعيش في مجتمعات منغلقة، حيث لا يسمح بزواج بناتنا إلا من أبناء عمومتهن، لماذا إذن نعيب هذا الحال على مجتمع هذه المدينة، بل بالعكس هم يرحبون بأي نوع من الأشخاص طالما كانت النية الزواج، وها أنا اليوم قد ارتبطت بإحدى أعرق العوائل في المدينة.

---

١ – تسمية تطلق على الشخص المولود من ابوين عربيين.

كان موعدنا المساء كما هو المعتاد في ليالي الجمعة في مدينتنا ان تقام الأعراس تبركا، كان الحفل عائلياً مختصراً حسب طلب السيد برير حتى لا يثير مشاعر البعض ممن لم يسمهم، ولكني عرفت من يقصد، فهو حريص على مشاعر صهره السابق، ولولا اصرار سارة على الطلاق لم يكن ليطلقها والدها.

اجتمعت العائلتان وبعض المقربين من الأصدقاء والذين سعوا بإتمام هذا الزواج في دارنا، لم يكن الحضور كبيرا، وسرعان ما باركوا لنا هذا الزواج وانصرفوا جميعا، وذهبت والدتي تجر بخطاها المثقلة الى غرفتها في الطابق الارضي، بعدما ودعت شقيقاتي وازواجهن، بينما اتخذنا أنا وسارة من الطابق العلوي مقراً لنا بعيداً عن شهلة ووالدتي.

(٢٠)

ليلة الزفاف

غادر المهنئون الدار وصعدنا أنا وسارة الى غرفتنا لتغلق علينا الباب ولأول مرة، كنت اتأمل هذا السحر وهذا الجمال الأخاذ بكل تفاصيله، عَمِدَتْ الى ثوب الزفاف فخلعته ليتبين لي من وراء الثوب الشفاف الابيض كل جمال الطبيعة وما حبا الله هذه المرأة من مفاتن، استلقت الى جانبي – وأنا مرتبك – وكأنما جاءت من رحلة بعيدة قد هدها التعب والاعياء، أخذت نفساً عميقاً لتسترد من خلاله كل ما مضى من عمرها الذي أهدرته مع صاحب المكوى، واستدارت بوجهها نحوي، وانا مازلت بملابسي والذهول يهيمن على نظراتي مما ارى، كنت مشدوها لروعة ما أرى لم أكن مصدقاً حتى تلك اللحظة بأنها صارت لي، مدت يدها الى رقبتي وسحبت رأسي اليها لتضم رأسها اليه وقالت كلمة واخيرا بشكل مطول.

– قم يا كريم واستبدل ثيابك فنحن الآن زوجين امام الله والناس ودع عنك هذا الخجل فأنا اعرف انك لم تتزوج من قبل ولكني فعلتها.

مضى يومان على زواجنا ولم أكن اعرف طعم السعادة في

حياتي إلا في تلك الساعات التي قضيتها بأحضان هذه المرأة، ففي اليوم الثالث وبعد الغداء كانت السماء متلبدة بالغيوم وتنذر بيوم ممطر حيث اخترق ضوء البرق وصوت الرعد زجاج النوافذ، كنت أنا وسارة في الفراش، التصقت بي عند سماعها صوت الرعد طوقت رقبتي بذراعيها بينما تخصرت يدي جسدها فطويتها اليَّ.

فجأة تبادر الى ذهني سؤال حاولت معرفة اجابته بشكل مباشر منها.

- سارة لماذا انت سعيدة لهذه الدرجة فأنت تطيرين فرحا، ولم أكن اعرف انك تكنين لي كل هذه المشاعر، ضحكت من أعماقها وجلست منتصبة.

- سأقول لك كل ما ترغب به ولأول مرة، ولا احد يعرف هذه الاسرار سوى الله وأنا والآن أنت:

- لقد تزوجت هذا الرجل وهو من عوائل المدينة المعروفة ومقتدر مالياً ويحمل ثقافة متوسطة، لاتتعدى ما تعلمه في المدرسة والمجالس الحسينية وهي ثقافة مستمدة من الروزخون، ولم تكن معلوماته تتعدى ما يقوله الشيخ على المنبر، فهو لم يكمل المتوسطة، وفي بداية زواجنا اظهر لي التدين بشكل غير اعتيادي، وغالبا ما يسوق الحديث عن طاعة الزوجة لزوجها وتلبية رغباته الجنسية وكيفية ان المرأة هي لعبة الرجل، كنت اصغي له باهتمام لمعرفة ما يريد الوصول اليه من خلال حديثة هذا فأنا لم أكن

أقصّر في واجباتي الزوجية، الى أن في أحد الأيام بدأ يحدثني عن احدى الآيات في القرآن الكريم وهي بالتحديد ((نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ)) هل تعلمين ماذا يقول الشيخ يا سارة، فقلت له ماذا يقول، يقول انها ظرفية للمكان في هذه الآية، فقلت له انّى ظرفية للمكان والزمان ولماذا تكون في هذه الآية ظرفية للمكان وليس للزمان فسكت ولم يحر جوابا لعدم معرفته ما معنى ظرفية أصلاً، ولكني عرفت بأنه قد سأل الشيخ حول قضية ممارسة الجنس معي من الدبر فأستشهد له الشيخ بهذه الآية، فجاءني مستبشراً معتقداً انني سوف اخضع له وامنحه ما يريد بسبب فتوى هذا الشيخ، ولكنه صدم بإجابتي له، وقلت له بالحرف ان ما تطلبه بعيد المنال عنك، لك منّي أن أكون زوجة لك بما يرضي الله ويرضيني وألبي قواعد الشرع المسموح به، امّا تفسيرات هؤلاء أنا غير ملزمة بها، ابحث عن هذا عند غيري، فأنا لم انفعك في هذا الموضوع وتوترت العلاقة بيننا من جرّاء هذا النقاش فأنا لا أنكر قد كنت هجومية الى حد كبير، وقد أوضحتْ معالم وجهه عن شيء من الاحباط، وحالة النفور مني، وعدم مقاربتي، بينما كنت أنا أعيش حياتي بشكل اعتيادي معتقدة أن هذه نزوة سوف تنتهي ويعود للفراش ليمارس حياته الزوجية بشكل اعتيادي، إلا انه لم يعد.

مضت أسابيع على هذا الحديث، وفي أحد الأيام عدت من الدوام مبكرة، فتفاجأت به في المنزل ومعه عامله الشاب الصغير (عامر)

وكانا يهمان بالخروج معا، فوجدتهما عند الباب، استغربت من هذا الموقف ولم اعرف سبب مجيئهما، بل وهذه أول مرة منذ زواجنا يدخل شخص غريب للبيت، سلمت عليه ومررت بينهما الى المطبخ وناديته، وسألته عن سبب تواجدهما بالبيت في هذه الساعة وهي ذروة العمل هو وعامله، ارتبك ولم يقدم سبباً مقنعا لذلك، الحقيقة أنا لم يهنأ لي بال بعدما رأيته، وخصوصاً عند دخولي الى غرفة النوم ووجدت الفراش قد تغير عما نظمته في الصباح، فهو لم ينظم بشكل مضبوط كما فعلت أنا.

قررت يومها أن أكون رقيباً على ما يفعل هذا الرجل بغيابي، وأعرف سر هذه الزيارة المفاجأة التي ملأت قلبي بالشكوك، وبالفعل دون الاطالة طلبت اجازة لعدة ايام لتظاهري بمرض نسائي، فتعاونت معي المديرة لمعرفتهم بأني متزوجة حديثا، وخوفاً من حالات الحمل والاسقاط الذي لم يحصل لي يوما ما، وأخفيت عنه موضوع الاجازة، كنت أذهب بالصباح الى بيت أهلي لزيارة الوالدة والاسترشاد بنصائحها، وعند وقت معين أعود لأراقب البيت من بعيد، لم يكن هناك شيء في اليوم الأول ولا الثاني، اعتقدت انه قد شعر بشكوكي فخاف ان يكرر المسألة لمرة ثانية، ففي اليوم الثالث وهو نهاية الاجازة المرضية، حدث مالم يكن بالحسبان فقد حضر هو وعامر الى الدار ودخلوا، تركتهم حوالي ربع ساعة ودخلت بعدهم بهدوء، وسمعت كلام الغنج والدلال التي يغدقها زوجي على

(عموري) كما يسميه هو، وكان الصوت صادرا من غرفة النوم، ذهبت الى غرفة النوم وفتحت الباب بهدوء فتحة صغيرة لأرى ما يحدث، فوجدتهم في موقف مخزي، وبقيت مندهشة وأنا أراقب ما يحدث، هممت ان أدخل عليهما ولكني تذرعت بالصبر لمعرفة الأكثر، فبعد انتهائهم من هذا الموقف قام زوجي باعتلاء (عموري) ولما أنجز مهمته وقد ظننت إن الأمر انتهى لهذا الحد، قام زوجي بالانبطاح وقام عموري باعتلائه، أذهلني هذا الموقف وتركني معقودة اللسان فأنا متزوجة من (مثلي الجنس) فكيف السبيل الى الخلاص.

دخلت عليه الغرفة واعلنت حضوري أمامهما، والغريب ان زوجي لم يتأثر من هذا الموقف ولم يشعره بالخجل مني، وأما عموري فلبس ملابسه وغادر البيت فوراً، بينما نزار ظلّ مستلقياً على الفراش كأنه عروس في ليلة الدخلة، وقد أنجز العريس مهمته بافتضاض بكارتها، قام منتشياً ولبس ملابسه بهدوء تام، وقال لي:

- انت كنت السبب أردتُ أن أتركَ هذه الحياة ولكنكِ لم تتجاوبِ معي، إياك ان تفكري بفضح هذه الحالة، لأني سأتهمك بالمقابل (انت اش واني اش) قلت له:

- بماذا ستتهمني، قال:

- سأتهمك بأني ضبطتكِ على فراش الزوجية بصحبة عشيقكِ وتخيلي مقدار الفضيحة التي سأسببها لكِ ولعائلتك.

سكتُّ على مضضٍ ولم اشأ أن أشرك اهلي بما رأيت ولكننا لم نعد زوجين كما كنا في بداية الزواج، وهو قد استغنى بعموري عني، ولم اكن اسمح لهما بدخول الدار أصلا، فوجدا مكاناً آخر لممارسة الجنس المثلي، ويبدو انهم قد استخدموا المحل لهذا الغرض، فقد صار يتأخر لساعات طويلة بالليل قبل الحضور للدار.

– هذه قضية، واما القضية الأخرى التي جعلتني اشعر بالسعادة اني قد اجريت عدة فحوصات مختبرية تؤكد قدرتي على الحمل وأن سبب عدم الانجاب هو زوجي، فهو حين أراد أن يتزوج بامرأة اخرى للأنجاب، كان هذا لي باب الفرج قد فتح على مصراعيه، فهو الخلاص والانعتاق بشكل لا يسبب الفضيحة لأي طرف، والاجتماع بمن احببت، فأنت كنت لي حلما لطالما أحببت أن اشاركك هذا الفراش، ففيك من الرجولة والحياء والمروءة ما يجعلك مطمعا لكل أنثى، وأنا استغرب سر تعلقك بي وأنت شاب وغير متزوج وأمامك الفرص كثيرة في بغداد لتتعرف على أجمل البنات، وتقترن بها، علاوة على ان هناك من العوائل في بغداد من تفتح لك افاقاً كبيرة في حالة اقترانك بإحدى بناتهم، وانت خريج حقوق واصبحت قاضياً.

طال الليل بنا ونحن بهذا الحديث الصريح جداً فوجدت من المناسب أن تعرف سارة عنّي كل شيء حتى لا تتفاجأ في أحد الأيام بمعلومة قد ينقلها مغرض لعائلتها، وخصوصا أنا قاض وكثير

من الخصومات التي سأحكم بها ستنتج اعداء لي.

- سارة هل تعرفين أنني من أسرة فقيرة جداً كنا نسكن في تلك الأكواخ التي احترقت قبل سنوات، هل تذكرينها.

- نعم اذكرها.

- كنت لا املك من إرث أبي سوى حمارة وجحش ماتا في الحريق، ولا أملك من الذكريات الكثير، فأنا لي أعمام في مدينة أخرى لم أتواصل معهم نهائيا، ولكن لي عمة أشعر بأنها اختطفت مني كانت هي كل شيء بالنسبة لي، فهي الانثى الوحيدة التي كنت أشعر بأنوثتها من خلال عاطفتها وحنوها، وعندما تضمني الى صدرها كنت اغفو بين يديها، هذه العمّة الجميلة التي عشقتها جاء عمي في احد الايام وأخذها معه ليزوجها، ولم نعد نراها منذ سنوات طويلة او نسمع بأخبارها.

ومات أبي كمداً وحسرةً عليها، وكنت أنا أبحث في كل النساء عن عمتي ولم أجدها فهي ليست ككل النساء، هي شيء آخر، هي كتلة من العواطف والمشاعر، عاشت وسط بيئة لم تكن مناسبة لها فهي مخلوقة لغير هذا الذي عشنا فيه سابقاً، بقيت أبحث عن عمّتي ما عشته من حياتي السابقة، حتى شاءت الأقدار ان أعثر عليها يوما ما واقفة أمامي، هي عمّتي حورية، بكل تفاصيلها بنفور صدرها وخصلات شعرها وضحكتها وابتسامتها، تسمرت يومها أمام هذا الجمال، ووقفت حائرا ماذا أصنع بكل هذه الألوان من العطايا

الإلهية، وكيف لي أن أصدق بأني قد وجدت ضالتي، قررت يومها أن تكون هذه المرأة لي، فها أنا لا اخفِ عنك أي شيء.

وها أنت ترين انني مازلت مذهولا لرؤيتك ولم أصدق عينيّ.

كانت العواطف بدأت تشتعل بعدما أنهينا حديثنا الصريح جداً وتخطينا كافة التابوهات التي قد تعيق حياتنا المستقبلية، بدأ حديث الغزل مجدداً وما اجمله من حديث، بتنا ليلتنا الشتوية تلك التي لا انساها ما ابقاني الله في عناق حتى الصباح.

(٢١)

اعترافات قبل الرحيل

لم اطلب من والدتي قبل مماتها سوى شيء واحد وهي ان تزودني بعنوان عمتي لزيارتها، فأنا لم أعد اقبل هذا الوضع، فعمي قاسم لا رغبة لي برؤيته، فهو شخصية منفرة لم أكن أتقبل وجوده في الدار وانا طفل صغير، فهو يمتاز بطول فارع، وجسم ممتلئ، وشاربين كثين، وصوت جهوري، وفيه غلظة، فأخلاقه تلائم بدوي اكثر مما هو ابن ريف، وكان كثير الشجار مع والدي الذي كان على عكسه تماما، فهو يخاف الله، وليّن الطباع، ورقيق الحاشية، ويؤدي فروضه بانتظام، لم يسمعنا يوما كلمة نابية أو خشنة، ربما تنتابه في بعض الأوقات حالة عصبية، لم يكن يجلس في البيت، ويحاول الخروج منه حتى لا يؤذي أحدنا.

عندما طلبت من والدتي ذلك لا أعرف لماذا بدأت بالبكاء، وبدموع حرى لم افهم سبباً لها سوى اعتقاد منّي بأنها حالة من ندم، وتفريط بحقوق عمتي، ولكن الأمور لم تكن هكذا، فهي سكتت وطلبت مني غلق الباب لنبقى وحيدين...

- حسنا أمي كلي اذان صاغية الرجاء تكلمي...

- إن عنوان عمتك هو الوادي يا ولدي

- ماذا؟

- نعم... فقد قتلها عمك قاسم.. وهذا سبب خلاف أبيك مع عمك.

- ولماذا قتلها.؟

- تلك قصة طويلة.

- أريد معرفتها بالكامل.

- لكن تقسم لي انك لن تبوح بشيء منها لأي انسان مهما كلف الأمر.

- نعم اقسم على ذلك.

- هل رأيت شخصا كان قد حضر يوم زفافك مع عمك برير، وهو يلبس عمامة خضراء مثل عمك وكان يناديه بالأغا.

- نعم كنت قد رأيته، وهو يسكن بالقرب منّا.

- لقد كانت عمتك تعمل في بيت هذا الأغا ومن قبلها في البستان (طواشة)، وأنت تعلم كم هي جميلة، ومرحة، وبريئة، لقد لفتت انتباه الأغا الى جمالها، ومرحها، فأخذها عنده في البيت لتعمل كخادمة لزوجته المريضة، وفي بعض الأحيان يتطلب عملها المبيت في الدار مع زوجته، وقد التف حولها كالأفعى وخدعها بكلامه المعسول، وأقنعها بعقد زواج منقطع لا قيمة له، ليرضي رغباته وفعل ما فعل، بعد ان وعدها بالزواج منها، ولكن كيف تكون

لأخت (المچاري) هذه القسمة، ظلت على هذه الحال معه حتى حملت منه وصار الحمل واضحاً، عرف أبوك بالموضوع، لم يكن يجرؤ على ارتكاب اية جريمة بحق أخته، وهو يعرف انها ضحية، فذهب الى استفتاء الحاكم الشرعي في النجف وطلب منه الرأي والمشورة، فأشار عليه السيد بتزويجها اياه بعقد دائم، ولم يرخصه بإيذائها نهائيا، فقط قال احبسها في البيت حتى الولادة، وفعلاً ذهب الى بيت الأغا وطالبه بذلك فتم العقد والطلاق باليوم التالي، والطلاق يعتبر باطلاً كون المرأة حاملاً، وعند ولادة الطفل لم يقبل بالاعتراف به، وكانت هي شهلة التي أخذها ابوك، واستخرج لها اوراقاً رسمية بانها ابنته خوفاً على شقيقته من الفضيحة، ولكن عمك قاسم عرف بالموضوع بشكل وآخر، وجاء الى هنا وخدع اباك بأنه سيزوجها في الرميثة، وهناك نفذ جريمته، وقتلها، فأصيب والدك على أثرها بصدمة جاءت عليه، فتوفاه الله من الألم والخديعة التي تعرض لها، واعتبر نفسه مقصراً بحق أخته، وهذا سبب وفاته، ولم يكن يجدر به ان يثق بعمك قاسم، فهو يعرفه غير مأمون، وغير موثوق، فكلامه نابع من نفس شريرة تحاول ان تجعل من الدم صبغة لها.

كان هذا الاعتراف مثابة صاعقة نزلت على رأسي، يومها بكيت بحرقة لم اعهدها من قبل، بل اعتقد اني قد فقدت كل دموعي في ذلك اليوم الذي لم ابك بعده سوى مرة واحدة عند فراق والدتي بعدها

بعدة أيام، حيث ساءت حالتها الصحية فعادها الطبيب (الشريفي) وطلب مني ان استعد لرحيلها فهي في ساعاتها الاخيرة وقرأ لها هو بنفسه بعض الادعية.

غادرت والدتي مخلفة وراءها عبئا ثقيلا ومفاجأة لا اقوى على تحملها، خلفت وراءها ألماً وحزناً ومفاجأة، فشهلة ليست شقيقتي بل هي ابنة عمتي حوري، وعمتي تم قتلها ودفنها في أرض غريبة لانعرف لها قبرا، ولا مكانا لنزوره على أقل تقدير، دفنت والدتي بحضور شهلة وسارة وشقيقتيَّ الأكبر مني حيث خيم الحزن على البيت، لا أنكر ان حزني على والدتي كان عميقا، ولكن حزني على عمتي كان أعمق بكثير لما تعرضت له من ظلم على يد أناس قد باعوا ضمائرهم، وبحثوا في مزابل الأعراف عن أحكام بلون الدم نفذوها بحق هذه المظلومة، فالأغا الذي اغرى عمتي وأولدها شهلة، ولم يعترف بأبوته لها كان سافلا، ولم يرع حق الله فيها فهي لم تمنحه نفسها حتى عقد عليها عقد منقطع، ومن ثم تم توثيقه بعقد دائمي فهي زوجته شرعا، وهذه ابنته شرعا، ولكنه تخلىّ عنها لأنه اعتبرها من مقام لا يليق به وبأسرته، وعمي هو الآخر كان سافلا، حتى بعد رؤيته (الزنامة)[1] عقد الزواج ووثيقة الطلاق، لم يقتنع ببراءة أخته وذبحها كما تذبح النعاج أو اطلق عليها رصاصة من مسدسه، او جعلها شاخصا وصوب نحوها بندقيته البرنو لينفد بها

---

١ – عقد الزواج

حكم الاعدام، لم ارد ان اسأله عن كيفية تنفيذه حكم الاعدام فيها، فأنا لم اره منذ تلك الحادثة الى يومنا هذا، وهو لم يسأل عما جرى لنا، ولا يعرف اين صرنا.

سلمتني والدتي كل اوراق والدي بما فيها عقود الزواج والطلاق لعمتي وسند الارض الزراعية التي تخصه بالرميثة وحصته التي لم نعلم أين صارت، ومن استغلها، وها أنا اكتشف اليوم انني من ملاّك الأراضي، وصاحب ارث يمثل خمس دونمات من الأرض الزراعية التي تسقى سيحا، هذه الاوراق تمثل عبئا كبيرا حافظت عليه والدتي بشكل جيد ولكن كيف لي الحفاظ عليه، الحل الوحيد هو الذهاب للمصرف الموجود في شارع العباس وهناك احصل على صندوق ايداع اضع فيه هذه الاوراق، هكذا ذهبت لمصرف الرافدين وأودعت كل الاوراق، التي قد احتاجها في قابل الايام.

(٢٢)

قراءة متأنية

لم أكن منتبها لبعض الأمور في المذكرات، ولكونها كُتِبَتْ على مراحل عديدة، وجدت أن الخط ليس بمستوى البداية، فقد تحسن كثيراً، ولم اجد صعوبة في قراءته، وان المذكرات أخذت جانبا تنظيميا أكثر، وصارت تشير الى تواريخ دقيقة وأحداثاً بتفاصيل أكثر، مما تؤشر ارتقاء الأسلوب السردي لصاحبها، فهو لم يعد ذلك (المچاري) الذي يعيش مع البهائم، فقد بدأ يدون فقط الأحداث المهمة التي صارت تبرز في حياته والمتغيرات التي لها وقع على نفسه، فهو كما يبدو قد انخرط في المجتمع بشكل جيد وصار له مركزٌ اجتماعيٌ مرموقٌ، وفتحت له الابواب المغلقة التي كان يحلم بفتحها، والسبب هو زواجه من سارة واجتهاده في منصبه الوظيفي.

فهو لم يعد يخش من ماضيه الذي حاول اخفاءه بشكل أو بآخر، فزملاء المهنة القديمة مازالوا موجودين ويلتقون به في الشارع العام، أو عند المكتبة، ويسلمون عليه، ولم يجد حرجا في نفسه من ردّ السلام عليهم والوقوف معهم للحديث والسؤال عن أحوالهم، فهم تحولوا الى أصحاب مهن ومحلات، وقسم منهم صار من ذوي

الاملاك، ولم يعد هؤلاء الناس مثلما كانوا، فهم صاروا جزءاً من المدينة، وصار بعضهم يشار اليه بالبنان، سواء كمهنة أو برز في مجال معين كشاعر أو ممن يقيمون السرادقات للعزاء في مواسم الحزن الكثيرة في المدينة، وغيره من الأمور، وهم بنفس الوقت يحترمونه ويحسبون له الف حساب وينفذون ما يطلب منهم وخصوصا اصحاب الحرف، وهم يعتبرونه مثلهم الأعلى. كل هذا اوضحه في مذكراته.

كانت الامور تجري بهدوء، ولكن حدثاً هاماً حدث في عمله جعله غير مستقر وقلق للغاية، فهو لا يريد أن يزعج السلطة ولا يريد أن يخون أمانته الوظيفية، والتوفيق بين هذين الهدفين صعب جداً في مكانه الجديد، فقد تم نقله الى قاضي لأحدى الدوائر الأمنية، حيث تعرض عليه القضايا الخاصة بهذه الدائرة، وهو يعرف ان معظم المعتقلين اللذين يردون عليه هم من السياسيين، من مختلف الأحزاب المعارضة الموجودة في البلد، وقد كانت تلك الأحزاب ناشطة، وتعمل ضمن جبهة موحدة كما تدّعي السلطة، ولكنها كانت تصطاد الناشطين منهم بذريعة أو أخرى، اما الأحزاب الدينية فكانت ممنوعة من مزاولة نشاطاتها نهائياً، فهم عرضة للاعتقال مباشرة، ومن تثبت عليه تهمة التخابر مع دول اجنبية فعقوبته الإعدام، وكذلك الشيوعيون، إلا ان هناك خياراً آخر للشيوعيين، هو تقديم كشف بأسماء تنظيمهم وتعهد بعدم الارتباط

بالحزب الشيوعي، فمنهم من قدم وسلم على حياته، ومنهم من تم سوقه للمحكمة وأعدم، كان يخشى هذا الموقف لأنه يعرف إن المدينة موزعة بين هذه الأحزاب ومن أصدقائه المقربين بعض الشيوعيين الذين يشار اليهم بالبنان، وقد كان مدير الأمن آنذاك رجلا قاسيا، لا يعرف حدود الله وهو مَلَكي اكثر من الملك. كان يخشى هذه المواقف التي قد تسبب له أذى وسمعة غير طيبة داخل مجتمع المدينة الذي دخله حديثا، فهو غير مستعد لهذه المخاطرة. فقد كتب في مذكراته.....

(٢٣)

مغادرة المدينة

لم أكن أتوقع عملية النقل الى قاضي تحقيق مديرية أمن المحافظة، كان نزول الخبر عليَّ كالصاعقة، فأنا أعرف ان أغلب أصدقائي المقربين ينتمون لأحزاب خارج السلطة الحاكمة، وإذا ما القيّ القبض عليهم وتم سوقهم للمحاكمة سوف يعرضون أمامي للتحقيق معهم ومحاكمتهم، وغالباً ما تأتي أوراق المتهمين وقد انتزعت منهم الاعترافات بالقوة وتم التوقيع عليها بالقوة، وإذا اشتكى أحد المتهمين من تلك المعاملة وذكر إن الاعتراف انتزع منه بالتعذيب، لم يكن أمام القاضي إلا إعادة التحقيق، وهذا معناه إن هناك جولة أخرى من التعذيب اشد وأقسى قد تزهق فيها روحه، وسيكون القاضي بكل الأحوال هو المسؤول عن هذه الخطيئة ولو بشكل غير مباشر.

قررت الاتصال بصديقي حسام العبيدي للتخلص من هذا الموقف المحرج الذي وضعت فيه، فقد كان الرجل متفهما موقفي وقدّر مخاوفي، وكنت اخشى البوح بها الى اقرب المقربين خشية ان اتهم بالتعاطف مع اعداء الثورة، والمصير معروف فهذا يكلفني

مستقبلي الوظيفي إن لم يكن حياتي.

في وقت لاحق اتصل بي السيد حسام العبيدي لينقل لي البشرى، هناك عدة محافظات جديدة لم يمض عليها سوى تسع سنوات مثل السماوة، والنجف، ودهوك، وصلاح الدين، ومن المفترض ان تفتح هناك محاكم رئيسية وهم بحاجة الى كوادر فتم تخييري بين هذه المحافظات، فاخترت السماوة بعد تفكير عميق وحسابات قديمة وهناك غاية في نفس يعقوب، وسبق وان خدمت في هذه المحافظة في بداية تحويلها من قضاء الى محافظة، لم يكن مضى على ترقيتي وقت طويل، ولكن جهود ومواقف السيد حسام كانت رائعة فقد تم تعييني رئيس جنايات، وهذا منصب لم أكن احلم به.

لقد كان اختياري للسماوة لحسابات كنت قد وضعتها منذ زمن، وانتظرت فرصة سانحة لتحقيقها، أول الحسابات معرفة مصير ارضنا التي ورثناها عن والدي أنا واخواتي، والثانية هي معرفة مصير اعمامي وما آلت اليه امورهم، وهل بالإمكان محاسبتهم على جريمة القتل أم لا، ومعرفة قبر عمتي حوري ومكان دفنها، لم يكن في حساباتي الانتقام، ولكن تحقيق العدالة هو هاجسي الأول والأخير، فهناك ظلم كبير قد وقع على انسانة بريئة لم يكن لها من ينصحها، أو يكفيها معيشتها، فعملت وسط غابة من الوحوش بهيأة ذكور.

كنت سعيدا بقرار النقل وأنتظر بفارغ الصبر موعد تنفيذ الأمر

الوزاري، ولكن حدث ماكنت اخشاه، ففي الصباح وعند مباشرتي في العمل، جاء شرطي الأمن مستصحبا معه موقوف وقد عصبت عيناه والاغلال بيده، لم تكن هيأة هذا الموقوف غريبة عني ويبدو لي انه فائز الحسيني – صديقي الذي انقذني في الكثير من المواقف – الذي اختفى منذ عدة اسابيع، وقد جاءتني شقيقته للبيت لمعرفة مصيره، وتعذر حينها معرفة مكانه، حيث كانت هذه الأمور تتم بسرية تامة جدا، طلبت من الشرطي ادخال الموقوف، وفتح عصبة العين، وفك الأغلال عن يديه، ومغادرة الغرفة، نفذ كل الأوامر بشكل حرفي، لم يكن الكاتب قد حضر بعد ولم استدعه، لم يستطع فائز ان يتعرف عليَّ في بداية الأمر ولكن حين حدثته انتبه للصوت ومسح على عينيه بروية للتأكد مما رأى، فانفرجت أساريره وتنفس الصعداء، اغتنمت الفرصة للحديث مع فائز، حيث وجدته قد وقع على بعض الاعترافات البسيطة وغير كافية لإدانته، وانا اعرف عند اعادته اليهم سيتم تعذيبه اكثر، ولكني نصحته بعدم الكلام مع أي أحد، وأنا سأكلف أحد المسؤولين بالحزب ليأخذ منك تعهد وكشف بالأسماء، فحالة أمك وأخواتك منذ اختفائك لليوم لا تسر عدوا ولا صديقا، ولا نعرف اين اختفيت فقد بحثنا عنك طويلا، ولم نعثر لك على أي أثر، انني هنا لليوم فقط وسوف لن تجدني ثانية، فقد تم نقلي لجنايات السماوة، سوف أعيدك لعدم كفاية الأدلة وأطلب التوسع بالتحقيق، ولو إنك ستعاني ولكن لن يطول انتظارك إن شاء

الله، وعليك أن تسمع الكلام عندما يتصل بك هذا المسؤول.

جرت الأمور كما خططت لها، وأطلق سراحه بعد أيام، جاءني قبل مغادرتي انا وزوجتي الى السماوة.

(٢٤)

محكمة السماوة

أعلمت بأن هناك دار للسكن في السماوة تم تخصيصها لنا، كانت زوجتي تحمل وليدها الأول وهي بالشهر الثالث من الحمل، وهذا ما القى عليَّ أعباء اضافية في العناية بها كونها في غربة وهذا ابنها البِكر.

غادرنا دارنا صبيحة السبت، بعد أن تم احكام أقفال البيت، ولم نجلب معنا سوى حقائب للملابس، فقد أبلغوني بالوزارة، انهم سيتكفلون بتأثيث الدار، ومنحوني صلاحيات صرف بمبالغ معقولة وكافية وإن لم تكف بالإمكان طلب كشف اضافي، وصلنا السماوة بعد الظهر بقليل وكان المطر قد توقف قبل قليل وترك الأرض موحلة وكانت الرياح شديدة السرعة وباردة دفعت معها الغيوم من سماء السماوة وقد بدأت شمس الظهيرة تظهر أحياناً وتختفي أحياناً خلف الغيوم.

وكان باستقبالي بعض القضاة الجدد وبعض الموظفين القدماء ممن عملت معهم سابقا، وهم من ابناء السماوة ويعرفون مداخل ومخارج المدينة التي كانت مدينة بسيطة بعمارتها وشوارعها، فهي

شبه منسية، يظهر ان يد الثورة لم تمتد لها حتى ذلك اليوم، إلا اللّهم في لصق بعض الصور للرئيس والنائب، وهذا ما حصلت عليه السماوة.

تمّ اصطحابي أنا وزوجتي الى الدار المخصص للسكن وقد تمّ وضع بعض الاثاث المتواضع فيه بشكل مؤقت لحين تجهيزه بشكل جيد عند حضوري، كانت الدار واسعة، وبمساحة كبيرة على زوج وزوجته، وكان البناء من الطراز القديم، لا أعرف لماذا اعتقدت انه كان للحاكم الانكليزي؟، هل بسبب الطراز ام للمساحة الواسعة والصالات الفارهة، وبلاط الارضيات المنتظم من اللون الاصفر؟، فهذه المساحة الكبيرة تكلف الكثير من المبالغ للتأثيث، كما ويصعب على امرأة حامل القيام بأعباء التنظيف، كنت أحسب هذه المعوقات وبالي مشغول بطفلي الجديد وسارة الحبيبة التي اقتلعتها من بين اهلها وجئت بها الى هنا، كيف ستتدبر أمرها، ولكني فوجئت بأحد الموظفين وقد جلب معه امرأتين، وقدمهن اليَّ بأنهن العاملات اللاتي سيعملن في الدار، هنا انصرف عني هذا الهم، فالسائق تعرفت عليه سابقاً، والخدم موجودون والدار يمكن تأثيثها بأثاث لائق. لم تعد هناك مشاكل تشغلني سوى الاهتمام بعملي.

كان لابدّ من التعرف على المسؤولين الكبار في المحافظة وباعتباري احدهم سيزورني الكثير منهم، وحتما سأزورهم أيضاً، ويجب ان اتهيأ لهذا الموقف وبالشكل الصحيح، ليكون الانطباع

الأولي عني جيدا، ولا أترك أثراً سيئاً عند أحدهم، فالمحافظ معروف وهو أحد المشايخ اللذين يشار اليهم بالبنان، وهو شخص متواضع جداً، التقيت به في ديوان المحافظة بناء على دعوة منه، وأما بقيّة المسؤولين، فبادروا الى زيارتي في المحكمة وفي الدار مساء.

(٢٥)

بداية العمل

كانت بناية المحكمة في السماوة بناية صغيرة ولا تكفي لهذا التطور المفاجئ وهي بسيطة بأثاثها وقليلة الغرف مع وجود مساحة فائضة يمكن استخدامها لبناء ملحق فيها، وهذا ما بادرت بعمله منذ البداية، فالتصاميم كانت جاهزة، والتخصيصات كانت وافية، وتم الاعلان عن المقاولة سلفا، حيث وضعتها الوزارة ضمن خططها السنوية منذ اعلان السماوة (المثنى) محافظة.

كان اليوم الأول من العمل مخصصا للتعارف فوجهاء القوم وكبار الموظفين بادروا لزيارتي في الجناح المخصص لي، وكذلك صغار الموظفين أيضاً بادروا للتعرف عليَّ، وكنتُ سعيداً بالتعرف عليهم، وخصوصاً بعض المشايخ ممن سمعت عنهم من والدي، ولكن لم أر أي أثر لعمومتي، ربما زارني احدهم ولم اتعرف عليه.

تركت الأمور عند هذا الحد لأباشر في عملي، وأطلعّ على الكثير من القضايا التي صارت ضمن مسؤوليتي، فأنا رئيس جنايات الآن، ورئيس المحكمة، ومهمة انعقاد المحكمة منوطة بي، هكذا انصرفت لمتابعة القضايا ودراستها، واتخاذ ما يلزم بكل قضية

علـى حـدة، لفـت انتبـاهي إن القضـايا المعروضـة هنـا معظمهـا خلافات عشائرية ينتج عنها حالات قتل، وهي في أغلبها تأتي من الريف وليس من المركز، حيث انتبهت أن مركز السماوة أكثر مدنيّة وأكثر انفتاحا من الريف المحيط به، فهناك حيث ينتمي عمي وبعض من قومي تحدث الحوادث، ويكثر القتل، وغسل العار، ويتفاخرون بذلك.

كانت سارة تأخذ من اهتمامي الكثير فهي غريبة في هذه المدينة، ولكن انفتاح عوائل السماوة واسلوبهم الحضاري بالتعامل أراحها وابعد عنها الكثير من الوحشة، فهي صارت تلتقي بنساء المسؤولين في المحافظة وتتجاذب معهم اطراف الحديث في أمسيات نسائية خالصة، وهي تأخذ بنصائح بعض الأمهات اللائي سبقنها بالإنجاب وكيفية مراعاة الجنين، كما طلبن اليها أن تلد في السماوة وهن من سيقوم برعايتها، ولكنها رفضت بشكل قاطع هذه الفكرة، حيث ارادت ان تشارك اهلها فرحتها بالمولود الجديد والذي طال انتظاره، فنساء السماوة لم يعرفن قصتها مع الحمل وأن هذا زواجها الثاني، فهذه الأمور لا يمكن التحدث بها في مجلس النساء، وحسنا فعلت بهذه الجزئية، فقد وفرت علينا الكثير من الأسئلة والاشاعات، كنت منتظما بدوامي في المحكمة، وعلى اتصال دائم بشهلة التي كنت أتابع تقدمها بالدراسة باهتمام حيث مثلت لي هي الاخرى تحد من نوع آخر، فهي الركن الثاني في أسرتنا التي نحاول أن ننشئها وسط

هذه المحافظة، فهي اتصلت بي لتسألني عن موعد ذهابي الى مدينتنا حتى تحضر لتراني وتناقش معي موضوعا يخصها، طبعا انا عرفت وخمنت ماذا تريد، ولكني لم اكتشف سوى جزء من الموضوع وليس كله... فحددت موعدا لحضوري وهو قبيل ولادة سارة بأسبوعين.

(٢٦)

الرميثة

لقد قررت زيارة القضاء الذي جاء منه والدي وانتمي اليه، ولو اني لم ازره يوما، فقد ولدت في هذه المدينة في تلك الاكواخ البائسة التي التهمتها النيران، ووجدت نفسي بين أبٍ يعمل على كراء حمارته، وأم مشغولة بتدبير شؤون الاسرة الداخلية، واخوات ثلاثة، وانا وسط هذا الزحام والرؤية الضبابية لمستقبل لا يبشر بالخير في احسن الاحوال، وطموح مكبوت بالبقاء على مقاعد الدراسة.

كان يرافقني أحد الأخوة في المحكمة من له صلات قرابة ومعرفة في العشائر التي تسكن هناك وبدأ يحدثني عن الرميثة وتاريخها، وعرفت بعض المعلومات المهمة عنها.

فها انت كما ترى ان الرميثة لها تاريخ عريق يمتد الاف السنين، كيف تجاهلوا كل هذا الارث الحضاري وعادوا لحياة البداوة، هل تعاقب دول الاحتلال هو من ازرى بنا كشعب ذي ارث حضاري كبير، كيف السبيل للخروج من هذه الدوامة.

وصلت بنا العجلة الى احد المضايف الكبيرة في احدى قرى القضاء، وتم تقديمي لصاحب المضيف وهو أحد المشايخ الكبار

في المنطقة، والذي بدوره رحب بنا افضل ترحيب، كان السؤال عن الأرض التي امتلكها، وسرعان ما تعرف على والدي وأعمامي، وسألني عن والدي وقد أبدى أسفه وترحمه عليه عندما عَلِمَ إنه توفى، فهو لم يعرف إنه قد انجب ولدا، فهو يتذكر ان له ابنتان فقط.. وقد ابدى بعض التحفظات عندما سألته عن أمر الأرض وما آل اليها مصيرها، فهو يعرف أن عمي قاسم وأولاده قد استحوذوا على الأرض واستغلوها طيلة هذه المدة، وسألني: ان كنت قد حصلت على شيء من محصولها خلال هذه الاعوام، فاطرق عندما اجبته بالنفي، وقال الأمر ليس مستغرباً من عمك واولاده، فهم يسلكون سلوكاً مخالفاً لكل الأعراف، ولديهم نزعة عدائية تجاه الآخرين على عكس والدك رحمه الله، وهذا كان سبب رحيله من هنا لكثرة المشاكل التي كان يثيرها عمك قاسم مع العشائر الاخرى، حتى أبناء عمومته تبرؤا منه ومن أولاده، وكثيراً ما حضرنا مجالس الفصل العشائري التي كانت تقام بسبب مشاكلهم والتي كلفت آل هدهود الكثير من الأموال وبالنتيجة تركوه وحيداً ومع ذلك لم يكف عن هذه المشاكل مع كبر سنه وعجزه ولكنه لم يردعهم، وانا اعتقد انك ستدخل معهم في مشاكل لا حصر لها بسبب هذه الارض.

لم يكن من الممكن ترك هذا الموضوع بسبب تحذيرات هذا الشيخ ولو انه من الصعب تجاهلها كونها صادرة عن انسان مجرب وله خبرة بهذه العائلة وتعايش معها منذ نشوئها ولحد اليوم، ولكن

سأكون حذراً بالتعاطي معهم.

قررت العودة الى السماوة واتخاذ الاجراءات القانونية بحقهم وتمكيني من الأرض التي استولى عليها عمي وأولاده دون اللقاء بهم فاللقاء بهم هو مضيعة للوقت كما فهمت من هذا الشيخ، وفعلا كما قال لأن هؤلاء كانوا يعيشون في عالم مختلف بعيداً عن المدنية والتحضر على عكس جيرانهم، ففي أحد الأيام جاءت مفرزة الشرطة لتنفذ الأمر القضائي بإعادة الأرض لي وحسب المستندات الصادرة عن دائرة الزراعة ودائرة التسجيل العقاري في السماوة وسجلات الري التي تقول بعائدية الأرض الى والدي، ولكن بقيت هناك مشكلة، حيث لم يرغب أي أحد بشراء هذه الأرض كونها تجاور أرض عمي وهم سوف لا يتركون وسيلة لتهجير أي مشترٍ، ولكني قمت بزيارة الى عمي فوجدته قد نال منه الزمن واقعده، فاستغرب كثيراً عندما علم بأني رئيس المحكمة، وأنا امثل القضاء في المحافظة، فرحب بي على مضض، والحقيقة رأيت إن الزمن قد أخذ لعمتي حقها منه يكفي أن أحد أبنائه قد قتل في احدى النزاعات العشائرية التي كان يفتعلها هو وابناؤه، وها هو الآن جليس الدار لم يعده إلا القليل ممن هم على شاكلته، وها انا اليوم قد جئت لأسترجع إرث ابي، وهذا بحد ذاته عقوبة يمكن ان تقضي عليه.

عند زيارتي له خيّرته بين أمرين لا ثالث لهما اما ان يشتري الارض بسعر السوق هذا اليوم، او أرفع قضية أخرى أطالبه بإيجار

المثل طيلة هذه السنوات التي استغل بها الأرض، وأطالبه بريعها طوال هذه السنين، وهو مبلغ يتجاوز قيمة الأرض بأضعاف مضاعفة، أدرك بشكل قاطع انني قادر على هذا الفعل، ولن يتمكن من ردعي، فأنا في مركز القوة، وفي أوج قوة الدولة، فانصاع الى مطلبي بكل هدوء وعقلانية، ولم اشأ أن افتح معه موضوع عمتي حوري بكل تفاصيله، سوى أن يدلني على قبرها، فأعطاني اسم الدفان في محافظة النجف، وعرف من خلال لهجتي معه أني غاضب عليه ولم اسامحه، وهذا بالفعل كان شعوري تجاهه وقد اوصلته له باحترافية واضحة، ولم أسمح لأبنائه بمشاركتنا الحوار حيث طلبت منه اخلاء المكان لكون الحديث يخصنا نحن الاثنين، فغادروا المكان بشكل مذل، ويبدو انني قد نلت منهم وكسرت ارادتهم بطريقة ناعمة، وبأسلوب قانوني وحضاري.

(٢٧)

سارة

كان موعد الولادة قد اقترب وصار لزاما عليَّ أن أرجع سارة الى أهلها لتتم ولادتها بشكل يسير وسط أحبائها ليشاركوها فرحتها، وفي هذه الاجازة حضرت شهلة الى دارنا في حي الحسين لتلتقِ بي، فقد كان الموضوع من الأهمية بمكان ان تخصص له شهلة كل هذا الوقت، ومثلما توقعت فقد كانت شهلة تحدثني عن دكتور محمود واخلاقياته وأن له اقارب من مدينتنا، فأمه من هنا وهي من احدى العوائل العلوية، ولديه خال هنا.

وانها قد حصلت على البورد العربي وتريد السفر بصحبة زوج المستقبل الى لندن ببعثة على نفقة الدولة لإكمال الدراسة، وهذه فرصة يجب ان تستثمرها.

كان هذا الموضوع بقدر ما جعلني مرتاح حيث سأخلي طرفي من اختي الصغرى، فهي ستكون انسانة مسؤولة عن نفسها ومع زوجها لتكوّن اسرة، بقدر ماكنت قلقاً من طموحاتها التي ليس لها حدود، فهي لم تترك فرصة للتقدم في دراستها إلا واستغلتها بكل ما فيها من تفاصيل، فهي لم ترحم نفسها، ولم تعش حياتها كأنثى،

فهي وجدت في د. محمود كل طموحاتها العاطفية والعلمية، وهذا ما جعلني اقلق اكثر، خشية أن تقصّر في علاقتها الزوجية، وقد يستاء منها زوجها، ولكني ابعدت هذا الشبح من مخيلتي، فشهلة امرأة ناضجة الآن، وهي تحمل صفات الجمال والانوثة مالم تحمله انثى اخرى، فهي متفردة في انوثتها ومحط أنظار كل الرجال وزملائها،.

اتفقنا انا وشهلة على تحديد الموعد متى تشاء، وتتصل بي قبل فترة كافية حتى اتمكن من الحضور وليتها تكون بعد ولادة سارة، التي لم يتبق لها سوى اسبوعين على الولادة.

لقد حضرت والدة سارة لرؤيتها والاطمئنان عليها، فأنا سأغادر بعد يومين واتركها بعهدة والدتها مطمئنا كونها بيد امينة.

عدت الى السماوة لأباشر عملي في المحكمة فقد كنت منشغلا طيلة هذه المدة بالقضايا المعروضة عليَّ، وكانت الحياة رتيبة جدا، فأنا قليل اللقاء بالمسؤولين، وكلهم يعتبون، وكنت اعتذر منهم بأني مرتبط بموعد محدد لإنجاز كافة الدعاوى والقضايا المعروضة امامي خلال فترة اسبوعين، كوني سأتمتع بإجازتي السنوية، وهذا لا يترك لي مجالا للقاء الاصدقاء، مع إن زوجتي تنتظر مولودنا الاول ولكني بعيد عنها، وها انا أحاول أن أكون معها في اقرب وقت.

قبل يومين من بداية الاجازة السنوية جاءني اتصال من شهلة يحدد موعداً للخطوبة وستكون هناك في دارنا خلال يومين للترتيب لهذا الموعد، فوعدتها خيرا وقلت لها سأكون خلال هذا الأسبوع هناك.

(٢٨)

شهلة

في اليوم الذي وصلت فيه، تزامن وصولي مع وصول أختي شهلة ومخاض سارة، فقد سارعت الدكتورة شهلة بالالتحاق بحبيبتها سارة لتكون معها في هذه اللحظة، وقد تبعتهم الى دار والدها حيث رفضت الولادة في المستشفى، وجاءت احدى القابلات المأذونات في المحافظة لتوليدها، بينما جلست انا مع والدها في غرفة المكتبة والتي تبعد عن مكان الحدث، لم نكن نسمع صوت سارة بقوة التي تتابعت صيحات المخاض لديها، وعرفنا ذلك من خلال حركة النساء في الدار وسرعة الحركة والارتباك الذي يصيب النساء في هكذا مناسبات، فقد تأخر الوقت وطالت حالة الطلق لدى سارة وخشينا كلنا عليها، ولكن بعد هذا المخاض جاء (قتيبة) فقد كان المولود ذكراً، وسألت عن حالة سارة فقيل لي انها بخير والحمد لله ويمكنك أن تراها بعد قليل، كان السيد بريـر مبتهجاً للغاية بهذه المناسبة فقد أعطى القابلة مبلغاً كبيراً كبشارة وأجرة التوليد، كانت علامات البهجة والفرح بادية عليه للغاية فهو قد احتضنني وبارك لي هذا المولود، فكنت اعرف ما يختلج بصدره منذ طلاق سارة

وزواجها مني، فهو لم يكن على يقين بأن السبب كان من صهره الأول، حتى حملت سارة، ولم يكن على يقين انها ستلد بل ربما سيكون حملا كاذبا، فهو كان يتابع حالتها كل يوم للتأكد من صحة الحمل، فعند ولادتها كان قد أيقن تماماً أن سارة كانت محقة بطلب الطلاق من زوجها، وأن زواجنا كان موفقاً، واني صرت الصهر المناسب له فها انا رئيسٌ لمحكمة وابٌ لحفيده قتيبة.

كان السيد برير رجلاً يوازن الأمور بشكل واقعي وليس متزمتا في علاقاته مع الآخرين، كان منصفاً ومتصالحاً مع نفسه، مع علمه بأن صهره الجديد من أصل متواضع لكنه تجاوز هذه الحالة، فقد عرف فيما بعد انه من أصول عشائرية محترمة وقد اضطر والده ولظروف معينة للمجيء الى هذه المدينة. لتكون مقراً بديلاً له ولعائلته عن مدينته القديمة التي تركها مكرهاً، فهو صار يفتخر بهذا النسيب الجديد بل يفضله كثيراً.

فقد جاء طلب الموعد للخطوبة من قبل السيد برير الذي فاجأني بهذا الطلب، اعتقدت ان هناك شخصا آخر غير دكتور محمود قد كلف السيد برير لخطبة الدكتورة شهلة، فسألت عن اسم الخطيب، فقال مبتسما، هو دكتور زميلها في العمل واستاذها في الدراسة، هو دكتور محمود التميمي ابن أخت الاغا، وقد كلفني الأغا بطلب الموعد معك، لقد صعقني هذا الكلام وتسمرت بمكاني وتوقفت الكلمات في فمي، لم تعد لي قدرة على النطق مطرقاً رأسي للأرض

لفترة لا أعرف إن كانت قصيرة أو طويلة ولكني انتبهت أمام حيرة عمي السيد برير من حالتي هذه، فهو لا يعرف ما الذي أصابني، وماهي المفاجأة التي عقدت لساني، فقال مستدركا: عمي أنا قد علمت إن لك علماً بالموضوع وأنت متوقف على الموعد فقط، وهنا تداركت نفسي ووضعي، واعتذرت من عمي وقلت له لا مانع من الحضور بعد يومين، حتى اطمئن على سارة وقتيبة وسأكون بانتظاركم الساعة الرابعة عصراً في دارنا. عندها ابتسم عمي وشكرني على ذلك.

هل كان الأغا يعلم انه يخطب ابنته لابن أخته مني؟،هل كانت شهلة تعلم أن أباها الحقيقي قد جاءها خاطباً اياها لابن اخته مني انا ابن خالها؟، هل كانت شهلة تدري بأنها تتزوج ابن عمتها؟، وبالمقابل هل زوجها يعلم انها ابنة خاله؟، كيف تتلاعب بنا الاقدار؟ وكيف ترسم لنا مسارات الحياة؟،هل حقا نحن من اخترنا هذا المسار لحياتنا؟، أم انه فرض علينا، كيف لي أن أفاتح شهلة بهذا الموضوع، وهل من حقي أن أكون سبباً في ضربها بمقتل وهي في مقتبل العمر؟، وبداية بناء حياتها، من يكون هذا الامّعة حتى ادمر شقيقتي الصغرى – هكذا عرفتها ولم اغير رأيي – بسببه، هل هناك داع لهذا الاعتراف؟، وهل سيشرفها نسب هذا الأغا المحتال؟ الذي كان سببا بمقتل عمتي ووالدتها، فهي لم تعرف أمها ولا تعرف أباها، فأبوها هو ابي ووالدتها هي والدتي هكذا عاشت وهكذا تكمل

مسيرة حياتها، فهي مفخرة لنا كعائلة، وصارت أم لأخواتها الكبار، فهي تحنو عليهن وعلى أولادهن فهي الخالة الصغرى، وكل الأولاد يحبونها ويلتصقون بها عندما تجتمع العائلة بالمناسبات، وها هي قد غدت طبيبة مرموقة يشار اليها بالبنان ويقصدها المرضى من كل المحافظات، فعيادتها الطبية في منطقة اليرموك مزدحمة بالمرضى القاصدين طلب العلاج، فمكانتها العلمية وسمعتها كطبيبة صارت حديث الناس، هل يستحق هذا الاغا ان يأخذ اختي مني؟،وما الذي سيمنحها اياه؟، اسمه الذي لطخه بالعار، فليذهب الى الجحيم هو واسمه، حسنا ليأت صاغرا ويطلب يد ابنته مني انا ابن خالها، سأرى ملامح وجهه حين يراها، هل سيتذكر فعلته الخسيسة تلك بأمها، هل سيوحي له شكل شهلة وصورتها بشيء من الماضي الذي دفنه في اعماقه القذرة كما دفن الكثير من الموبقات، ها هو الآن يعيش وحيدا دون ان يكون له من صلبه اي ولد، وماتت عجوزه العاقر دون ان تترك له ذكرى سوى المرض والألم، لماذا خشي منها في حينها وانكر فعلته؟ هؤلاء القوم كانوا سببا مباشرا في مقتل عمتي، فهل يستحقون ان اكافئهم بإعطائهم اجمل ما حدث لعائلتنا منذ ان صرنا عائلة لغاية اليوم؟، نعم أزوجها لابنهم ولكن يبقى اسمها مثل اسمي، فلا تحمل أسماءهم هذه التي دنسها العار.

عشت صراعاً مريراً مع نفسي، فأنا أحمل هذا السر وحدي ولا أريد ان يطلع عليه احد من المحيطين بي، حتى سارة يجب ألا

تعرف بهذا الموضوع، ولا حاجة لي بالاحتفاظ بهذه الأوراق التي اثقلت كاهلي وجعلتها امي طوقاً في عنقي، سأحرق كل هذه الأوراق التي لم يعد لها قيمة، فشهلة صارت طبيبة مرموقة، ولها حياتها وامكانياتها فهي لا تحتاج لهذا الشيخ المتهالك ليمنحها اسماً أو مالاً او جاهاً فهي تملك كل ذلك بل واكثر.

حضر السيد برير والأغا في الموعد المحدد ومعهم بعض وجوه المدينة المحترمة ومعهم الدكتور محمود الذي كان متشوقاً لرؤيتي، وقد عانقني عند دخوله الدار حيث كنت باستقباله، وطلبت من صديقيّ السيد فائز ورزاق الحضور ليكونا معي في هذه المناسبة، وقد تمت الخطبة بشكل سلس بعدما تحدث عمي السيد برير بمقدمة اعتاد عليها اهل المدينة عند خطبتهم لإحدى النساء، وكان بتكليف من الأغا الذي اثنى على العائلة الكريمة، والذي لا يعلمه هو من دنس هذه العائلة.

تم توزيع الحلوى والكؤوس المعبأة بالحلوى والمغلفة بالمحارم البيضاء على الحضور ابتهاجاً بالمناسبة، وبدأ الحاضرون بالانصراف، حتى فائز ورزاق غادرا مبكراً لارتباطهم بمواعيد، وطلبت من الأغا ومحمود وعمي البقاء لتتعرف عليهم الدكتورة، كنت قد قصدت هذا الموقف لأرى ماذا يحدث عندها.

كنت ارقب وجه الأغا عند حضور شهلة للسلام عليهم، فهي لبست العباءة كما كانت تلبسها عمتي حوري وكانت مقدمة الشعر

(الگذلة) ظاهرة من العباءة، ضحك الدكتور محمود، فهو لم ير شهلة ترتدي العباءة في بغداد، فهي سافرة في الكلية، وفي العيادة، أمّا عمي السيد برير وقف باستقبالها، ولكن الدهشة سمرت الأغا بمكانه فهو لم يعد قادراً حتى على النهوض، وظلّت عيناه متعلقة بشهلة لم تفارقها، فقد كان يسترجع عقوداً من الزمن الى الوراء، ويستذكر دهراً من الخيانة والغدر، وما قدمت يداه لمن وثقت به، جلست شهلة بالقرب مني وبمواجهة الأغا والدكتور والسيد برير، كنا نخوض بحديث عام وتطرقنا لمستقبل العروسين وموعد الزفاف، ولم يشاركنا الأغا في هذا الحديث الذي لم يسمعه مطلقاً، فهو كان غارقا بالذكريات التي أوقدت شعلتها رؤيته لشهلة، فهو سأل ابن اخته عن اسمها الكامل، وتأكد انه والدي الذي جاءه راجياً وطالباً الستر لأخته فبخل عليه، وتأكد تماماً ان هذه البنت هي حصيلة شهوته وخداعه لتلك المسكينة.

غادر الأغا وفي نيته الكثير ليفعله، فهو كان يمشي على غير هدى وبدون وعي، وكأنما انفصل عن هذا العالم، بل كان له عالمه الخاص الذي رحل اليه بسرعة البرق حين رأى شهلة، وأيقن انها هي ثمرة زواجه من حورية، ولكن انّى له الافصاح عن هذه المصيبة، كنت ارى تلك الحيرة وتلك الصاعقة ووقعها على الأغا الذي لم يعد ير طريق الخروج، فصار يرتطم تارة بالباب وتارة أخرى بالجدار، فهو في هذه الدار الكبيرة يعيش لوحده دون ذرية ودون

زوجة فقد غادرته زوجته منذ فترة طويلة الى جوار ربها.

تخدمه احدى النساء العجائز ممن يعرفونه حيث تقوم بالتنظيف والطبخ لعدة أيام وتغادر فهي تأتي بالأسبوع مرتين لتتفقد حاله، وتقوم بما يمكنها ان تقوم به، وتارة تجلب معها احدى البنات الشابات لتساعدها في تنظيف البيت الكبير وتهتم هي بشؤون الطبخ وغسل الملابس، وكان الأغا يغدق عليها بالمال.

(٢٩)

الزواج

بعد مرور عشرة ايام كنت ازور بيت السيد برير للاطمئنان على زوجتي وابني، كنت أجلس مع عمي برير ونتداول الحديث في امور كثيرة منها اجتماعية وسياسية ودينية فهو رجل مثقف ولديه اطلاع على الكثير من الأمور وله رأي خاص في كل ما يدور حوله، وهو أيضا كثير الأسفار وقد اعتاد أن يجلب لزوجتي عندما كانت بنتا آخر صيحات الموضة في العالم، وكانت تلبسها دون اي تحفظات، ففي الحفلات العائلية كان كل اللبس متاحا للبنات ولا يعترض أحد على ذلك، كان ينقل لي أخبار الأغا اولاً بأول وتدهور حالته الصحية، وآخر مرة رآه حين التقى بالمحامي، وكلفه بأمور لم يفصح عنها، وقد أخبرني انهم يريدون استعجال الزفاف، لأن العروسين سيغادران العراق ببعثة دراسية الى بريطانيا قد تستمر لفترة سنتين. لم أبد اي ممانعة وقلت له بإمكانهم تحديد اي يوم بشرط موافقة شهلة، فهي تملك القرار النهائي، وبالفعل تمّ استكمال كل مستلزمات الزواج، وتمّ عقد القران والزفاف في يوم واحد، في حفل عائلي بسيط حضره أخواتها وسارة وبعض صديقات الدراسة، وسرعان ما غادرا

المدينة متوجهين نحو بغداد، وكان بانتظارهم هناك الحفل الكبير الذي اقامه الدكتور محمود في احدى قاعات احد النوادي العائلية ودعا اليه زملاءهم من الأطباء والأساتذة في كلية الطب وبعض الأقارب، لم يحضر الأغا الا في آخر الوقت قبيل المغادرة لسوء حالته الصحية والتي لم تمنعه من المجيء لرؤية ابنته لآخر مرة، فهو لم يرها ثانية فبعد مغادرتها العراق بستة اشهر عثر على الأغا ميتاً في داره وقد بدأت جثته بالتفسخ، وقد عثرت عليها تلك المرأة العجوز، فاستدعت الجيران والذين بدورهم أبلغوا الشرطة والاسعاف وحرزوا ممتلكات الدار بحضور المحامي الخاص بالأغا. واقفلوا الدار وغادر الجميع، بعد الاتصال بأقارب الاغا واخته ام محمود، وجاء البعض ليشاركوا في دفن المرحوم آملين الحصول على جزء من الثروة.

فاجأني المحامي بعد مرور أسبوع على وفاة الأغا وهو يطرق على باب الدار حاملا حقيبته، وطلب مني الدخول الى الداخل، فرحبت به كونه زميل المهنة وأعرفه في العمل، فهو رجل محترم ومحام بارع وله سمعة طيبة، والحقيقة استغربت مجيئه لي في مثل هذا الوقت، واعتقدت ان له قضية في محكمة السماوة ربما يحتاج مساعدتي بها أو استفسار عن موضوع مهم. ولكنه حين جلس وبعد التحية والمجاملات أخرج أوراقاً كثيرة ووضعها على الطاولة التي امامه، وكانت الأوراق قد تم ترتيبها بمحفظة أنيقة ورزمت بشكل

منظم، ناولني هذه المحفظة وطلب مني قراءتها، سألته:

– ما هذه؟

قال لي:

– استاذ اقرأ وانت تفهم ما في الأوراق، بدأت بقراءة الأوراق وكانت عبارة عن سندات ملكية لعقارات وبساتين وعمارتين في مركز المدينة ودفتر توفير بمبلغ كبير جداً في بنك الرافدين باسم شهلة، وكل الاوراق هذه باسم شهلة وحتى الدار في حي الحسين باسم شهلة، قلت للمحامي:

– ما هذه الأوراق؟ ومن اين جاءت لأختي؟ وانا اعرف انها لا تملك هكذا عقارات، ولا رصيد في بنوك المدينة، ربما لديها في بغداد حيث تسكن هي وزوجها هناك، اجابني ببرود:

– انا اعرف انها في لندن ولهذا جئت لك لتستلم هذه الأوراق وتحتفظ بها لحين مجيئها، فأنت أخوها الوحيد ولا أعرف ماذا افعل بهذه الاملاك وكيف ادارتها بدون علم مالكتها الحقيقية؟

– طيب ممكن ان تقول لي من اين جاءت هذه الاملاك لأختي.

– نعم هي من الأغا فقد كتب كل املاكه وحول جميع أرصدته باسمها، ولم يتبق سوى مبالغ قليلة احتفظ بها لنفسه قد يحتاجها لما تبق له من ايام في هذه الدنيا، وفعلا مات ولم ينفق كل هذه الأموال التي احتجزها لنفسه وستذهب للورثة وهي مبالغ قليلة اذا ما قورنت بما تركه لشهلة.

– ماذا؟...من الأغا....وبأي مناسبة يقوم الأغا بتحويل أملاكه لأختي دون اخوته وابنائهم واخواته؟،وما علاقة اختي به حتى يحرص على تمليكها كل هذه الاموال؟

– هذا سؤال لا أملك له اجابة، فهو الوحيد الذي يعرف وأنت تعلم انه مات فأعذرني استاذ فقد تأخرت وعندي التزامات اخرى. واذا رغبت البقاء على ادارتي لهذه الاملاك فلا مانع عندي واذا لم ترغب فهناك من يرغب بدلا عني.

– مهلاً استاذي الفاضل فالأمور ليست بهذه العجالة، دعني استوضح منك بعض الأمور والاتفاق على كيفية ادارة هذه الأموال والحفاظ عليها بالتأكيد لم نجد من هو افضل منك لإدارتها وأبق على ما انت عليه والمتجمع من الاموال يودع بحسابها هذا، وأبق الدفتر معك، فأنت بإمكانك الايداع ولا يمكنك السحب لعدم وجود وكالة عنها.

– نعم هذا صحيح، اذا لم يتبق شيء أو استفسار أسمح لي الآن بالمغادرة فقد ناقشنا كل ما يلزم.

كانت هذه الحيرة التي ارتسمت على وجهه في ذلك اليوم فقد عاش لحظات تأنيب الضمير واحس بفداحة الخسارة التي خسرها دون أن يشعر في حينها. كانت هذه الأملاك سبباً في حيرتي وقلقي على مدار سنتين، فكيف لي ان اوضح لشهلة هذا الأمر.

(٣٠)

هجرات متتالية

عدت الى عملي وأنا محتار كيف سأبلغ شهلة بخبر هذا الارث الكبير وكيف افسر لها هذا الذي فعله الأغا، فهو لم يرد ان يتركنا نهنأ بمعيشتنا بعد أن دمرها بحياته، ها هو يريد تدميرنا بعد مماته، قررت عدم مفاتحة شهلة بهذا الموضوع حتى تعود بعد اكمال دراستها، ولكني خشيت من أخت الأغا أم محمود من المجيء والمطالبة بإرث اخيها، وماذا ستقول حين ترى كل الإرث قد ذهب لزوجة ابنها، فهي حتما ستتساءل عن هذا الموضوع، ولكنها سوف لن تجد جواباً مقنعاً، إلا ان أخيها اراد تكريم ابنها فحول املاكه باسم زوجته تحاشيا من الاصطدام بأبناء اخوتها الباقين، وهذا ما ستفكر به ام محمود وإلا ما تفسير هذا الارث الكبير.

تخطت سارة مرحلة النفاس وقررت الالتحاق بي في السماوة، فهي قد اشتاقت للجلسات النسائية وصديقاتها هناك.

سرعان ما مرت الأيام وقام قتيبة بخطواته الأولى، فقد بلغ عمره سنة، وخلال زيارتنا مدينتنا اثناء الاجازة السنوية وجدتُ الأمور قد تبدلت بالمحافظة، ونشأ حي جديد صار مثار للجدل بين الأهالي

فالكثير منهم يتذمر من وجود هذا الحيّ، وبالرغم من البلدية لم توزع هذه الاراضي، ولكن هناك هجرة كبيرة صارت باتجاه المدينة لتستقر في هذا الحي، وكانت قطع الأراضي تحدد من قبل الأهالي فكل شخص يرسم حدود ملكيته بنفسه ويبدأ ببناء السياج والغرف من الطين والعلب المعدنية الفارغة التي كانت عبارة عن نفايات معمل التعليب، حيث كانت ترمى بكميات كبيرة في تلك المنطقة، وصار الناس يطلقون عليه (حي التنك)[1] ومع مرور الوقت اتخذ اسماً مغايراً للاحتماء خلف هذا العنوان القوي لكي لا يتمكن مراقب البلدية (السيد مانع) من تهديم دورهم، فهو حين يهدم دارا يبنى بدلها عشرين دار، وهكذا استمر هذا الحي بالتوسع حتى فاق كل الاحياء فالهجرة غير منضبطة وتمكنت من تغيير ديموغرافية المدينة تماما، وصار ابناء المدينة يتضايقون من بعض العادات والتقاليد التي جلبها الوافدون الجدد معهم، فكربلاء حاضرة مدنية، وهؤلاء جلبوا تقاليد الريف معهم فالأسلوب واحد كما كنا نعيش نحن في الأكواخ سابقاً، فالأب لديه عربته التي يجرها الحمار أو الحصان والبنت تعمل (طواشة) والابناء أما في اعمال البناء او في القوات المسلحة.

نظرت الى الأمر من زاوية أخرى ليس كبقية ابناء المدينة، فأنا كنت مثل هؤلاء لدي حمارتي وعندي شهيدة وعمتي حوري كانت (طواشة)، رأيت ان التاريخ سيعيد نفسه مع هؤلاء القوم ولكن

---

١ – حي تم انشاؤه من علب الصفيح من مخلفات مصنع التعليب.

الاعـداد فـي هـذه المـرة كانـت كبيـرة جـدا، وممكـن اسـتثمار هـذه الطاقـات بشـكل افضـل فالأيـدي العاملـة اصـبحت متـوفرة وبشـكل رخيص، واصحاب المهن المتنوعة توفروا بشكل اكبر ولم تعد المهن والحرف الاخرى حكرا على اشخاص معينين، وحتما ستنشأ اسواق جديدة وتتوفر فيها كافة السلع، وفعلا هذا ما حدث.

اتصل بي على غير عادته صديقي حسام العبيدي ليبلغني بنقلي الى مدينتي رئيسا للمحكمة، فالمحافظة صارت تسجل الكثير من المشاكل فهي تحتاج الى قضاة بمستواكم يا صديقي، هكذا ابلغني بالخبر.. كان وقع الخبر طيبا على نفسي، فأنا اشتقت الى ملاعب الصبا وكذلك سارة التي سعدت بهذا الخبر، فهي تريد أن ينشأ ابنها بين أهلها، ويمكنها ان تتركه عند امها عند ذهابها للمدرسة، فهي لاتأمن للخادمات فعنايتهن غير كافية للأطفال.

(٣١)

العودة

كم افتقدك ايتها المدينة الذهبية، اينما ذهبت تبقى قبابك تلوح بالأفق أمام ناظري، وبساتينك تنثر رائحة القداح في موسم الربيع، كانت عودتي الى دياري قد ايقظت في نفسي الكثير من المشاعر التي كنت اختزنها في صدري لأصدقائي وشوقي لهم، فقد عادت لي كل ذكرياتي التي عشتها في طرقات وازقة هذه المدينة، فأنا ما زلت اتجول بها، وأحسب نفسي في عربتي التي تجرها حمارتي، كنت اربط جحشها بجانبها ليتعلم من امه، كان يجاريها بالركض، حين يسألني البعض عنه كنت اقول لهم هذا المعاون، كثيرٌ منهم يضحك حيث يذهب تفكيرهم بعيداً. هنا سوق صانعي البرادع،وهنا الحدادون الذين يركبون النعال للأحصنة وها هو شارع ابن الحمزة ملتقى الجميع.

أسير في الطرقات كالغريب لاوجود للوجوه القديمة فقد تغيرت المدينة، هل غادر أهلها أم ماذا؟،لاوجود لمقهى الصراف، وفلكة البلوش لم تعد موجودة، والمكتبة الاهلية صارت مكتبة تموز ولم يتبق منها ما يذكرني بها سوى أستاذ صالح عوينات، هناك تجديد

في البناء وربما لن يكون هذا الاخير، كنت اتجول قليلا في ازقتها في الفسحة وباب الخان، حدسي يقول لي ان هناك شيئا سيحدث وسيمحو كل هذه الاماكن التي اعرفها، فبعد ان تم اقتلاع نخلة مريم والسقخانة من منطقة المخيم، اتوقع هناك الكثير سيحدث.

زارني السيد فائز والاستاذ رزاق في بيتي وتداولنا أحاديث مطولة وباركوا لي عودتي الى للديار، ودعوا لي بالتوفيق، ولكني كنت أحس بأن هناك ما يريدان قوله غير هذه الاحاديث، فانتظرت مستمعا لما يقولانه حتى النهاية، وأخيراً جاءت نهاية الحديث حيث قالا، نحن جئناك مودعين، ربما لم ترنا مرة اخرى فنحن سنغادر العراق الى غير رجعة فالأمور لم تعد تطاق والوضع السياسي لم يعد مستقرا ولا يبشر بالخير.

– ألم تقدما كشفا ووقعتم على تعهدات على ترك العمل الحزبي.

– نعم ولكن الامور تسير باتجاه خطير أن طبول الحرب تقرع منذ مدة والوضع ذاهب باتجاه الحرب، وهذه الحرب لا ناقة لنا فيها ولا جمل. نحن سنترك العراق قبل فوات الأوان، فقد حصلنا على دعوة من احدى دول اوروبا الشرقية وسيتم منحنا الاقامة هناك.

كان هذا آخر لقاء معهم ولم نلتق بعد ذلك، ولكن حين وصلا الى المكان المقصود تم ابلاغي عن طريق شخص ثالث، ولم يراسلاني بشكل مباشر خشية ان تقع رسائلهم بيد الحكومة وتسبب لي الاحراج وربما الفصل من وظيفتي، فقد كان السيد فائز يستقرئ

الوضع السياسي بشكل صحيح.

لم يستمر الوضع طويلا حتى أنشبت الحرب اظفارها وتغير كل شيء.

عادت شهلة وزوجها الى العراق بعد ان انهيا المرحلة الثانية من دراستهما وحصولهما على الشهادة. كانت المفاجأة الكبرى التي واجهتها هي قضية الإرث الكبير الذي تركه لها الأغا، ولم تجد له تفسيرا مقنعا لغاية اليوم، فهي تدرك محبة الأغا لزوجها وتتفهم ذلك، اما ترك الميراث لها وتسجيله باسمها قبل موته بفترة ليست بالقصيرة كانت مسألة محيرة، وعند لقائها المحامي، تفاجأت برصيدها المصرفي الكبير، وطلبت اليه بيع بعض الأملاك التي لم تستطع ادارتها، واعتبرت ان الإرث كان لزوجها بالأصل، ولكني كنت أعرف سر هذه المسألة التي لم استطع البوح به ولم اسمح لها بالبوح الى اي احد من عائلة زوجها، فالمحامي أكدّ على هذا الموضوع، فهو لم يخبرهم الا بالقليل حيث قال ان المرحوم قد باع معظم أملاكه وصرف المبالغ على العلاج والنفقات اليومية، وقدم لهم المتبقي من المبلغ الذي احتفظ به لنفسه، وكان مبلغا محترماً اقتنعت به أخته ولم تسأل عن بقية الارث، ولا عن اسم المشتري، أصبحت الدكتورة شهلة من ذوي الأملاك الكبيرة في المدينة، وارادت التخلص من بعضها الذي يشير الى علاقة هذه الاملاك بالأغا، وحتى لا يربط اسمها به، فباعت كل هذه الاملاك عدا الاملاك التي لم يعرفها اهل المرحوم. وقد كان من

ضمن المبيعات بيت حي الحسين.

خلال فترة غياب شهلة كنت قد ذهبت الى بيت الأغا وفتشت كل الأوراق الرسمية الموجودة فيه، فعثرت على بعض الاوراق التي تخص زواج عمتي وطلاقها، فأسعدني العثور عليها كي أحرقها مثلما احرقت النسخ الموجودة بحوزتي، واخفيت كل معالم الارتباط بهذا الرجل، واحتفظت بالصندوق الذي عثرت عليه لأضع فيه مذكراتي واخفيته بمكان لاتصل اليه يد.

بعد أشهر من هذه الحرب بدأت المدينة تستقبل النازحين من ابناء الجنوب، البصرة تحديدا، لتعرض مناطقهم للقصف، فقد سكنوا في الحسينيات وكانت الحسينية الطهرانية تستقبل هؤلاء النازحين شأنها شان بقية الحسينيات، وغصت المدينة مرة اخرى بهجرة جديدة، حيث قام المحافظ وهو من أهالي البصرة بتوزيع الحيّ المخصص للموظفين الى النازحين من أهالي البصرة وتم توطينهم في المحافظة، وبدأت تتغير سمات المجتمع بشكل مختلف، لم اعد أرى أصدقائي وسط هذا الزحام الذي خلقته الهجرات المتتالية وضاعت تماما معالم مجتمعنا، وأصبحت لا أعرف ملامح محددة لهذا المجتمع الذي لم يعد هو نفسه، كان جلوسي الى عمي السيد برير هو الشيء الوحيد المتبقي من ذكرياتي عن هذه المحافظة، فهنا تذكرت قول أبي لأمي قبل عقود (أن موائد المستطعمين ممدودة ومناهل الظماء مترعة والناس تهرع الى كنف الامام طلبا للعون والأمان).

٣٢

نهاية المذكرات

لقد تخطيت كل هذه السنوات العجاف والحروب المدمرة، فها هي حرب الخليج الثانية تضع أوزارها عن بلد محطم واقتصاد مدمر وشباب بين معاق ومفقود وقتيل، لأول مرة تشهد هذه المدينة هجرة معاكسة، فهي تكاد تخلو من ساكنيها، لم أعد أعثر على تلك الوجوه التي كنت اطالعها عند مسيري في شوارع المدينة، اصدقائي الذين احببتهم فارقونا الى غير رجعة، عرضت عليَّ شهلة الانتقال الى بغداد، أنا والأولاد لتكون دراستهم أكثر سهولة ويسر، فهي تسكن في أحد الاماكن الراقية في العاصمة ولها ولد وبنت كانت شبيهتها وهي امتداد لسلالة عمتي حوري، قررت اليوم أن أخفي هذا الصندوق وأتوقف عن كتابة هذه المذكرات، فالأحداث لم تعد منطقية ولا منتظمة فهي صاخبة وخارج نطاق المألوف، وأنا لم أعد أستوعب ما يجري هنا في بلدي، فمدينتي ليست بدعا عن المدن الأخرى فهي تتأثر بكل ما يجري في الوطن.

كنت أخشى من السؤال عن أي من اصدقائي، فقد جربت حظي عند سؤالي اخ صديقي عن مصير اخيه، فقال لي انه قد تم

اعدامه، ماذا؟ اليس هو معهم، كيف تم اعدامه؟ لقد تم ذلك بفعل وشاية.

كنت اقول مع نفسي اذا كان هذا الحال مع جماعتهم والقيادات فكيف الحال مع بقية شرائح المجتمع، كنت اعذر كل من هرب الى الخارج حفاظا على نفسه وحياته، ولكن لمن سنترك البلد؟

(٣٣)

صندوق المذكرات

سألت ابني عن هذا الصندوق الذي جلبه ووضعه مع الحطب لاستخدامه في الشواء، وكيف عثر عليه. قال لي: ان صديقا له كان يمر ببيت قد تم حرقه من قِبَل بعض الخارجين عن القانون، وهذا البيت يعود لأحد القضاة في منطقة حي الحسين، كان بعض الشباب الذين تم الحكم عليهم لجرائم ومخالفات ارتكبوها من قبل هذا القاضي قاموا بحرق داره بدعوى انه من أزلام النظام.

شغلني مصير هذا الرجل فأنا ارتبط به بعلاقة ودية، سألت عنه بعض المعارف، قيل لي انه قد غادر البلد الى دولة مجاورة، مع زوجته المريضة، ولكن أولاده موجودون في بغداد.

لم أقنع بكل هذه الروايات التي قالت عن هجرته، فذهبت الى صديق، وهو احد الموظفين معي.

- سألته هل تتذكر ذلك القاضي الذي ذهبت ذات مرة معه لتوقيع زوجته المريضة على راتبها؟.
- وهل تتذكر موقع داره.؟
- نعم فأنا اعرف مكانه بالضبط

- وهل تعرف اين هو الآن؟

- نعم اعرف فقد رأيته قبل عدة ايام في احد الاسواق، وكان يتبضع برفقة زوجته، وقيل لي انه يذهب كل يوم عند داره التي دمرها الحريق يبحث عن أشياء تخص العائلة.

- هل من الممكن مرافقتي الى بيته المحترق هذا؟

- بكل تأكيد.

اصطحبت زميلي وذهبنا باتجاه حي الحسين، ودلني على مكان البيت، رأيته عبارة عن اطلال باقية تشي للناظر عن أيامها الخوالي بينما كانت عامرة بأهلها، وقفت انظر الى ما خلفته يد الجهل التي جاءت مع الهجرة الجديدة الى المدينة، وتمثلت بالعشوائيات التي انتجت لنا ميليشيات وجيلاً لا يتورع عن فعل أي شيء دون ان يرف له جفن، قلت مخاطبا نفسي، هل هذا ما تنتجه هذه الهجرات بعدما كانت تنتج لنا الادباء والمفكرين والكتاب والاطباء ورجال الدولة اللذين نفخر بهم واسسوا للثقافة والفن في مدينتنا، لماذا لم يكن هذا المهاجر مؤدبا كما كان، ويحافظ على المدينة التي آوته، بعد ان طرده قومه، أو شحت عليه مصادر الرزق في بلدته التي جاء منها، أهذا هو جزاء من احسن لك المأوى؟، كيف تطاوعك نفسك لتتعدى على اهل هذه البلدة ورجالاتها؟، وقفت اتأمل كل هذا الخراب والجدران التي تلونت بلون السخام، بعد برهة من هذه التأملات خرج، القاضي وبيده قضيب من حديد كان يبحث به بين

هذه الانقاض عن شيء فقده ويبدو لي انه كان شيئا مهما له.

تفاجأ بوجودي أمام داره، وابتسم حين رآني مع زميلي، وعرف انني ما جئت لأتفقد الدار انما جاء بي شيء مهم.

- اهلا استاذ افتقدناك بعد هذه الفوضى، وقد جئت لأطمئن عليك.

- شكرا لك عزيزي فأنت أهل للوفاء.

- فاجأته بإخراج الصندوق، لعلك تبحث عن هذا الصندوق.

- نعم انه هو من أعادني الى هذه الدار المحروقة.

- هل مازلت في المدينة؟

- كلا فقد غادرت للسماوة، ومن هناك غادرت الى بغداد لاستقر بها مع الاولاد فهم في جامعاتها.

- هل من عودة الينا فأنت من ابنائها؟

- لا يا صديقي، فنحن ما زلنا غرباء عنها ومهما فعلنا، تبقى كلمة الغريب تطاردنا في هذه المدينة. هذه مدينة الغرباء، فكل من فيها جاءها غريب عنها، فها أنا ولدت فيها وعشت فيها وبلغت من العمر عتيّاً وجاء من احرق داري،. لا تستغرب هذه الحالة، فمثل هذه المدن مسكونة بهاجس الانتماء. لا أعرف لماذا تتنكر هذه المدن لأبنائها...؟؟؟

كانت فرحته بالعثور على الصندوق تهوّن عليه كل ما ضاع منه خلال هذه المدة، فضياع البيت والاثاث وكل ما بناه في هذه المدينة

لم يكن له اثر في عينيه مثل لحظة حصوله على هذا الدفتر، فسرعان ما وضعه في عربته وسلم علينا مودعاً، وغادر المكان لا يلوي عن شيء فقد اخذ معه كل ذكرياته وما يربطه بهذه المدينة.

انتهت

الفهرست

وقفة لابد منها:..... ٥
الإهداء..... ٧
(١) صندوق خشبي..... ١٣
(٢) العثور على المذكرات..... ١٥
(٣) ((شهلة))..... ١٨
(٤) (شهيدة)..... ٢١
(٥) عمتي حورية..... ٢٥
(٦) (الامتحان التمهيدي)..... ٢٨
(٧) (الخدمة الالزامية)..... ٣١
(٨) (الامتحان النهائي)..... ٣٥
(٩) الحياة الجامعية..... ٣٩
(١٠) حياة جديدة..... ٤٢
(١١) (سارة)..... ٤٥
(١٢) اصدقاء جامعيون..... ٤٧
(١٣) شهلة..... ٥٠
(١٤) مذكرات (المچاري)..... ٥٤
(١٥) المعهد القضائي..... ٥٨
(١٦) سارة..... ٦٤

(١٧) شهيدة ٦٧
(١٨) شهلة ٧١
(١٩) الزفاف ٧٤
(٢٠) ليلة الزفاف ٧٩
(٢١) اعترافات قبل الرحيل ٨٧
(٢٢) قراءة متأنية ٩٢
(٢٣) مغادرة المدينة ٩٥
(٢٤) محكمة السماوة ٩٩
(٢٥) بداية العمل ١٠٢
(٢٦) الرميثة ١٠٥
(٢٧) سارة ١٠٩
(٢٨) شهلة ١١١
(٢٩) الزواج ١١٨
(٣٠) هجرات متتالية ١٢٢
(٣١) العودة ١٢٥
(٣٢) نهاية المذكرات ١٢٩
(٣٣) صندوق المذكرات ١٣١
الفهرست ١٣٥